من تراثنا

مجالس النابلسي في الوعظ والإرشاد

للإمام عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى
١١٤٣هـ

قدم له
عبد القادر أحمد عطا

خرج أحاديثه
عبد الله المشاوى

مكتبة القاهرة
للبحث العلمي والنشر والتوزيع
تأسست سنة ١٩٩٦ م
٠١٥٠٠٩٥٠١٠٠١٥
القاهرة - ميدان الأزهر - خلف الجامع الحسيني

من تراثنا

مجالس النابلسى في الوعظ والإرشاد

للإمام عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى
١١٤٣هـ

قدم له
عبد القادر أحمد عطا

خرج أحاديثه
عبد الله المنشاوى

مكتبة القاهرة
لصاحبها علي يوسف سليمان
ت: ٥٩٠٥٩٠٩ ص ب ٩٤٦ الأزهر
بالصنادقية ميدان الأزهر الشريف بمصر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

حقوق النشر والتوزيع

مكتبة القاهرة

ت: ٥٩٠٥٩٠٩ ص.ب. ٩٤٦ العتبة

الرئيسى: ١٢ شارع الصنادقية بالأزهر

الفرعى: ١١ شارع درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأعده لهذه الغاية فأدبه وعلمه وزكاه وطهره وجمع له من جميل الأدب وسعة الصدر وكرم النفس، فسبحان من أبدعه على هذا النهج وجعله قدوة للعالمين.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - أن يتأدبوا بخلقه الكريم ونقلوا ذلك إلى أجيال المسلمين من بعدهم ما رأوا من حاله وما سمعوا من مقاله أداء لرسالة العلم وأمانة تبليغ هذا الدين.

وتابعهم على ذلك فى النقل والرواية التابعون لهم حتى ارتقى العلم من بعدهم بتدوين السنن والآثار وحفظوا فى ذلك المصنفات المختلفة.

وتابعهم رجال كثير ممن يؤدون أمانة حمل هذا الدين وتبليغه منهم صاحب هذا الكتاب - الإمام عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى.

وقد سمى الإمام هذا الكتاب باسم مجالس النابلسى فى الوعظ والإرشاد.

جعله الله فى ميزان حسناته يوم القيامة

* * *

عملى فى الكتاب

١ - ضبط النص لغويًا وتخريجه.

٢ - تخريج الآيات القرآنية.

٣ - تخريج الأحاديث مع بيان درجة الحديث من حيث الصحة أو الضعف.

٤ - تخريج الأقوال للمفسرين من مصادرها كلما أمكن ذلك.

٥ - عمل مقدمة للكتاب.

وأخيرًا أدعو الله عز وجل أن يكون هذا العمل فى ميزان حسناتى يوم القيامة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

حققه

عبد الله عبد السميع المنشاوى

المنصورة - أجا - نوسا الغيط

ترجمة المؤلف بقلم الشيخ عبد القادر أحمد عطا:

هو الشيخ الإمام المحقق الفقيه المحدث المتكلم الصوفى عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى الحنفى الدمشقى مولدًا والمتوفى عام ١١٤٣ من الهجرة، وأبوه الشيخ إسماعيل النابلسى كان هو الآخر فقيهًا حنفيًا شرح درر الحكام ونقل عنه عبد الغنى ولده من هذا الكتاب، وتعقب أباه فى بعض آرائه، فهو من بيت علم تفتحت عيناه منذ الصغر على المحابر والأوراق، وعلى سمات العلماء ممثلة فى أبيه وإخوانه ورواده وتلاميذه.

والإمام النابلسى فقيه حنفى له اطلاع واسع على المذاهب الثلاثة الأخرى، دون تعصب لمذهبه، ولا قصور فى الفكر يدفعه إلى الوقوف عند الحجة الضعيفة حتى ولو كانت فى مذهبه الحنفى، بل هو مؤمن بأن المذاهب الأربعة صورة مضيئة للاجتهاد فى الأحكام العبادية لا فى العقيدة، وكلها صحيحة، والعاملون عليها عاملون على هدى من الله وبرهان، وأفاض فى شرح رأيه هذا فى رسالة مستقلة له رد بها على الرافضة الذين ادعوا أن المذاهب الأربعة تفريق مذموم فى الدين، وله مؤلفات فى الفقه الحنفى مازالت مخطوطة، منها «نقود الصرر فى شرح عقود الدرر فيما يفتى من أقوال الإمام زفر». ومنها مؤلفات استوعب فيها المذاهب كلها، مثل رسالته فى المخدرات، ورسالته فى الوقف، ورسالته فى أيمان الطلاق وغير ذلك.

وهو محدث بارع واسع الأفق طويل الباع، ودلالة ذلك كتابه «ذخائر المواريث» الذى خرج فيه الأحاديث تخريجًا يدل على تمكن ورسوخ فى علوم الحديث رواية ودراية، كما يدل على ذلك تخريجه للأحاديث الواردة فى كتابه هذا الذى نقدمه للقراء.

وهو متكلم فى كل ما ينمى ملكة العقيدة الصحيحة، ويجلى عنها غبار الشكوك والتردد، وألف فى موضوع الجزء الاختيارى فى الإنسان كتبًا كثيرة، كما تناثرت بحوثه الكلامية الواضحة فى ثنايا كتبه، كموضوع الأسماء والصفات، وترتيب العلم والمعلوم، ومذاهب السلف والخلف فى قضايا الوحدانية الإلهية.

وهو واسع الاطلاع فى تفسير القرآن كما يدل على ذلك كتابه الذى ألفه فى تبرئة هاروت وماروت من ارتكاب المعصية فى الأرض، إذ نجده قد رجع إلى نحو ثلاثين

مصدرًا من مصادر التفسير المعتبرة بالإضافة إلى غيرها من المصادر الأخرى التى تناولت الموضوع قبل عصره.

من أجل هذا كان النابلسى صوفيا واعيًا سالكًا على طريق الكتاب والسنة، شديد الوطأ على أهل الزيغ من الأدعياء الذين انتسبوا إلى الإسلام وشوهوا معالمه الرفيعة بما ابتدعوا فيه من قول وفعل وعقيدة.

واستمع إليه يقول: «وأما ما يفعله الجهلة بالله وبصفاته وبرسله وأنبيائه وبشرائعه ممن ينتسب إلى الصوفية وهم بعد لم يصح إيمانهم، فلو فتشتهم وجدتهم يعتقدون فى الله تجسيمًا أو تشبيهًا أو جهة أو مكانًا، وربما يصرحون بذلك اعتقادًا منهم أن ذلك محض الإيمان لكمال جهلهم بالله تعالى».

ومن أجل حرصه على سلامة الدين من أوهام أهل الزيغ عنى بتصحيح الكثير من المفاهيم الصوفية التى خاض فيها الجهال فأفسدوا رونقها مثل موضوع الشريعة والحقيقة، ووحدة الوجود، والإخبار بما سيكون من الوقائع والنوازل، وكانت كتبه فى هذه المواضيع وأمثالها حجة بالغة على ثراء عالم الإسلام، وعلى قوة دين الرجل.

ولقد ترك النابلسى تراثًا ضخمًا هائلاً من الكتب فى أصول الإسلام وفروعه لم يطبع منها إلا القليل، وما زال باقيه مخطوطًا، وقد ظفرت المكتبة الظاهرية فى دمشق بالمقدار الأوفر من هذا التراث؛ لأنه أقام فيها بعدما طوف فى الأرض طالبًا للعلم ورحالة فى طلب المزيد من لقاء العلماء.

وهذا الكتاب الذى نقدمه للقراء أحد مخطوطات المكتبة الظاهرية.

مجالس النابلسى

• مخطوط من مخطوطات المكتبة الظاهرية برقم ٩١٢١ عام، وهو أحد الكتب التى خرج بها النابلسى عن دائرة التصوف المتخصص إلى جمهور المسلمين العريض المحتاج إلى التذكير والوعظ، والتنبيه إلى أهم المواضيع التى تقيم سلوك المسلم فى نفسه، وتربطه بغيره على أساس من مرضاة الله، وصلابة البناء الاجتماعى الإسلامى المنشود من شريعة الله، والمواضيع التى طرقها فيه خير شاهد على ذلك.

وقد نهج فى تأليفه منهجًا سائغًا محببًا لكل النفوس، فهو يختار فى موضوعه حديثًا أو أكثر من أصح الأحاديث، كاشفًا عن مصدره من الكتب المعتمدة، ثم يشرح الأحاديث فى لغة سهلة ميسورة الفهم للجميع، مبينًا وجه العبرة والعظة منها، داعيًا الناس إلى التخلق بها ببيان عوائدها الخيرة على الإنسان والمجتمع.

ثم يثنى باختيار آية من القرآن تناسب الموضوع ويشرحها معتمدًا على تفسير البغوى والبيضاوى وغيرهما، ثم يلخص مراده من الموضوع الذى عرضه تلخيصًا وافيًا شافيًا.

ثم يقص فى موضوعه قصة أو قصتين تشهدان لموضوعه بالجدوى، وتغريان بالاستمساك به، والسير على منهاجه.

فالكتاب على هذا صالح لأن يكون مادة لخطب الجمعة، ولمجالس الوعظ، وللقراءة الحرة التى ينتقل فيها القارئ من زهرة إلى زهرة فى جنات الإسلام الوارقة الظلال.

والأصل المخطوط لهذا الكتاب نسخة وحيدة فى آخرها أنها بخط محمد بن إبراهيم الدكدكجى تلميذ النابلسى. ولكن فيها من شطب واستدراك على الهوامش يؤكد أنها من إملاء النابلسى على تلميذه، وليست منقولة من أصل المؤلف، لكثرة هذا الشطب والاستدراك، فهى لذلك مسودة المؤلف أملاها على تلميذه.

وهى بخط بين الفارسى والرقعة تقع فى ستين ورقة، ومسطرتها ثمانية وعشرون سطرًا. ومن المؤكد أن النابلسى راجعها بنفسه، إذ أن هناك استدراكات على الهوامش أثبتها بخطه، وقد علمنا ذلك من مقارنة هذه الاستدراكات بكتاب الفتح الربانى الذى كتبه النابلسى بخطه.

نسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه وأن يعم المسلمين بنفعه، إنه سميع قريب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين.

عبد القادر أحمد عطا

المجلس الأول
فى حب الفقراء والمساكين
والاستنصار بهم

أخرج البخارى عن سهل بن سعد الساعدى قال: مر رجل على النبى ﷺ فقال: **«ما تقولون فى هذا»؟** قالوا: حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْتَمَعَ له، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: **«ما تقولون فى هذا»؟** قالوا: حرى إن خطب ألا يُنْكَح، وإن شَفَع ألا يُشَفَّعَ، وإن قال ألا يُسْتَمَع له. فقال: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**[1].

وأخرج البخارى والنسائى عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص أن سعدًا رأى له فضلاً على من دونه، فقال النبى ﷺ: **«هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم؟»**[2].

وأخرج الترمذى وقال: حسن صحيح عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ابغونى ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**[3].

قوله: **«حرى»** بتشديد الياء، أى أحق وأولى. **«إن خطب أن ينكح»** أى يزوج المرأة التى خطبها؛ لقدرته بالمال والغنى. **«وإن شفع»** عند أحد من الناس فى أمر من الأمور؛ **«أن يشفع»** أى تقبل شفاعته، وتقضى حاجته؛ لأنه غنى، فيرغب الناس فى التقرب منه. **«وإن قال»** أى تكلم فى أمر من الأمور، أن يستمع لقوله طمعًا فى مودته، والتقرب إليه لغناه.

قوله: فمر رجل من فقراء المسلمين، **«إن خطب ألا ينكح»** أى لا يزوجه أحد أنفة منه، ورغبة عنه لفقره وحاجته. **«وإن شفع»** عند أحد لا تقبل شفاعته، ولا يحتفل به. وإن قال لا يسمع لقوله، بل يرد عليه فى وجهه إهانة له.

---

(١) البخارى فى النكاح (٥٠٩١).

(٢) البخارى فى الجهاد والسير (٢٨٩٦) والنسائى فى الجهاد (٦/ ٤٥).

(٣) إسناده صحيح: الترمذى فى الجهاد (١٧٠٢).

قوله: **«هذا»** إشارة إلى الرجل الثانى الفقير **«خير»**، أفعل تفضيل، أى أكثر خيرًا وبركة، وفضلا **«من ملء الأرض»** يعنى من رجال ملء الأرض **«مثل هذا»** يعنى مثل الرجل الأول الغنى.

وهذا الكلام باعتبار وصف الفقر فى الرجل الثانى، ووصف الغنى فى الرجل الأول، لا مطلقًا، فإن بعض الأغنياء قد يكون أفضل من الفقراء باعتبار وصف العلم والمعرفة والصلاح والدين والتقوى والورع وغير ذلك، ولكن وصف الفقر فى الغالب يكون ملازمًا للأوصاف الحميدة فى الشرع، فجرى كلامه ﷺ على مقتضى ذلك، والغالب فى الأغنياء: الأشَر(١) والبطر(٢) والغرور واستيلاء الغفلة على القلوب، فخرج هذا الكلام مخرج الغالب.

قوله: أن له فضلا على من دونه؛ يعنى فى الشجاعة والإقدام فى الحرب، ولهذا كان يسمى فارس الإسلام، فأراد النبى ﷺ أن ينبهه على قضية العجب رضى الله عنه ليحترز منها فى نفسه، فقال ﷺ: **«وهل ترزقون»**. أى يرزقكم الله تعالى وينصركم على أعدائكم **«إلا بضعفائكم»**. وزاد النسائى فى روايته: **«بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»**؛ يعنى أن سبب نصرتكم على أعدائكم إنما هو بدعاء ضعفائكم لكم، وببركة صلاتهم وعبادتهم لله تعالى، وإخلاصهم فى أعمالهم، وهم الصالحون من الأمة رجالا ونساء، ومعنى ضعفهم: قلة حيلتهم، وعدم مكرهم، لسلامة بواطنهم من السوء فى حق أحد من المسلمين.

قوله: **«ابغونى»** أى اطلبوا لى ضعفائكم؛ أى الضعفاء منكم، وهم الفقراء والمساكين، والمراد: اطلبوا لى منهم الدعاء، والتمسوا البركة والاستعانة بعلو هممهم فى جناب الله تعالى، والقرب منه، ثم قال ﷺ ترغيبًا فيهم، وحثا على الاستنصار بهم: **«فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»**، يعنى: لا تنصرون ولا ترزقون إلا بضعفائكم، وذلك بسبب دعائهم لكم، وبركة صلاتهم وعبادتهم وإخلاصهم فى ذلك.

ولفظ الضعفاء يشمل الأطفال الصغار، والشيوخ الكبار، وأهل الجذب والبلوى والأمراض المزمنة، والنساء العاجزات عن الكسب، والعجائز الصالحات وغير ذلك من

---

(١) الأشر: شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمكانة كما فى اللسان.

(٢) البطر: الطغيان بالنعمة، وبطر الحق: أى يتكبر عنه فلا يقبله كما فى القاموس.

ضعفاء الناس.

قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال البيضاوى: ﴿واصبر نفسك﴾: واحبسها وثبتها. ﴿مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى﴾: فى مجامع أوقاتهم، أو طرفى النهار. ﴿يريدون وجهه﴾. أى رضاء الله وطاعته ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾: ولا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، والمراد نهى الرسول أن يزدرى بفقراء المسلمين، وتعدو عينه عن رثاثة زيهم، طموحًا إلى طراوة زى الأغنياء ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه﴾: من جعلنا قلبه غافلا ﴿عن ذكرنا﴾، كأمية بن خلف فى دعائك إلى طرد الفقراء عن مجلسك لصناديد قريش. ﴿وكان أمره فرطًا﴾: تعديا عن الحق، وبنذالة وراء ظهره[١].

وقال البغوى: نزلت هذه الآية فى عيينه بن حصن الفزارى، أتى النبى ﷺ قبل أن يسلم، وعنده جماعة من الفقراء فيهم سلمان، وعليه شملة، قد عرق فيها، وبيده خوصه يشقها ثم ينسجها، فقال عيينة للنبى ﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحِّهم حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا ولهم مجلسًا، فنزلت. وقال قتادة: نزلت فى أصحاب الصفة، وكانوا سبعمائة رجل فقراء فى المسجد، لا يرجعون إلى تجارة ولا إلى زرع ولا ضرع، يصلون صلاة وينتظرون أخرى، فلما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ: «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر معهم»[٢].

حكاية

ذكرالشيخ أبو شامة فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الملك العادل نور الدين الشهيد أنه جمع عساكره ودخل بلاد الفرنج فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فنزل تحت حصن الأكراد، وهو يؤمئذ للفرنج، عازمًا على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس الشام، وهى يومئذ فى يدهم، فبينما الناس فى خيامهم وسط النهار ظهرت

(١) تفسير البيضاوى المسمى: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ص (٣٩١).
(٢) تفسير البغوى المسمى «معالم التنزيل»: (٣/ ١٥٩).

صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه الحصن، فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يستطيعوا، فانهـزموا، وخرج نور الدين الشهيد من ظهر خيمـته، فركب فرسًا، وذهب إلى مدينة حـمص، فاجتمع إليـه كل من نجا من المعركـة، ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضـر الأموال والدواب والأسلحة والخـيام وسائر مـا يحتاج إليـه الجند، وفرق ذلك جمـيعه على من سلم من العـسكر، وكان كل من ادعى من العـسكر أنه ضاع له شىء أعطاه بدله، فحضر بعضهم وادعى شيئًا كثيرًا علم بعض الناس كذبه فيما ادعاه، لمعرفته بحاله، فأرسل إلى نور الدين ينهى إليه القـضية، ويستأذنه فى تحليف ذلك المدعى على ما ادعاه، فأجابه: لا تكدروا عطاءنا، فإنى أرجو الثواب. وقال له أصحابه: إن لك فى بلادك إدرارات كثيرة، وصلات عظيمة للفقهـاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقـال: والله إنى لأرجو النصر إلا بأوليائك، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من يقـاتل عنى إذا رآنى بسهام قد تخطئ وتصيب، ثم هؤلاء الناس لهم نصيب فى بيت المال، كيف أعطيه غيرهم، فسكتوا.

* * *

المجلس الثانى

فى ميلاد النبى ﷺ

أخرج الترمذى عن قيس بن مخرمة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. قال: وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر منى، وأنا أقدم منه فى الميلاد. ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقفت بى أمى على الموضع. قال: ورأيت خَذْف الفيل محيلا(١).

قوله: عام الفيل. أى السنة التى وجه فيها أبرهة ملك الحبشة لهدم الكعبة، وكان معهم فيل جاؤوا به ليهدم الكعبة، فأهلكهم الله تعالى، والقصة مشهورة. وفى ذلك العام كان مولد النبى ﷺ. قيل: إنه كان بعد قصة الفيل بأربعين يوما. وعثمان بن عفان هو أمير المؤمنين، وذو النورين، وقباث بن أشيم، بفتح القاف وبضمها، وفتح الباء الموحدة وأشيم بسكون الشين وفتح الياء؛ هو قباث بن أشيم بن عامر الكنانى الليثى شهد بدرا مشركا ثم أسلم، وشهد حنينا مسلما. وقال الذهبى: له صحبة، وشهد اليرموك أميرا.

وقوله: أنت أكبر. بحذف همزة الاستفهام تخفيفا، وتقديره: أأنت أكبر. وقوله: رسول الله أكبر منى، يعنى قدرا وجاها وشرفا وعزا فى الدنيا والآخرة، وهذا من حسن الكلام، ولطافة الانسجام، وأنا أقدم منه فى الميلاد، أى متقدم عليه فى الولادة، وهو كبر السن، ولم يقل: أنا أكبر منه من كمال أدبه مع النبى ﷺ.

وقوله: ووقفت بى أمى على الموضع، يعنى موضع الفيل، وهو المكان الذى حَرَ فيه الفيل، وأعيا عن الذهاب والتوجه جهة الكعبة، وكان وقوف أمه على ذلك الموضع بعد مضى سنين، بحيث بلغ من العمر مقدار ما يعى الوقائع، ويدرك الأحوال.

وقوله: ورأيت خذف الفيل، بفتح الخاء وسكون الذال: الروث، والمحيل بفتح الميم: المتغير.

---

(١) إسناده ضعيف: الترمذى فى المناقب (٣٦١٩). قلت: فيه محمد بن إسحاق ضعيف.

وحاصله: أن النبى ﷺ ولد عام الفيل على ما عليه الأكثرون، وهو العام الذى أظهر الله تعالى فيه كرامة بيته المعظم، ونصر فيه أهل جيرته وحمايته من سكان ذلك الحرم الأمين على أعدائهم، وفشت فى العرب هذه الكرامة إرهاصا وتأسيا لنبوة نبينا محمد ﷺ، وإظهارا له فى عام ولادته، حتى تنقاد إليه النفوس الأبية، وتدخل فى شريعته بأصدق طوية.

وذكر الإمام السهيلى فى كتابه السيرة النبوية قال: وفى تفسير بقى بن مخلد أن إبليس رَنَّ أربع رنَّات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد الرسول ﷺ، ورنة حين أنزلت الفاتحة. والرنة: الصيحة والصوت الشديد.

وعن أم عثمان الثقفية، واسمها فاطمة بنت عبد الله قالت: حضرت ولادة رسول الله ﷺ، فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نورا، ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع علَّى، وولد رسول الله ﷺ معذورا مسرورًا، أى مختنا مقطوع السرة، وكانت أمه آمنة تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما يجده الحوامل من ثقل ولا غير ذلك، ولما وضعته ﷺ وقع إلى الأرض مقبوضة أصابع يديه مشيرا بالسبابة كالمسبح بها. وذكروا أن الفيل جاء إلى مكة فى المحرم، وأنه عليه السلام ولد بعد مجيء الفيل بخمسين يوما، وهو الأشهر، وأهل الحساب يقولون: وافق مولده من الشهور الشمسية نيسان، فكان لعشرين مضت منه(١).

وفى كتاب اللطائف لابن رجب: المشهور الذى عليه الجمهور أنه ﷺ ولد يوم الإثنين ثانى عشر ربيع الأول، وكانت قصة الفيل توطئة لمولده ونبوته، وتقدمة لظهوره وبعثه، وقد قص الله تعالى ذلك فى كتابه فقال ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قوله: ﴿ألم تر﴾ استفهام تقرير لمن سمع هذا الخطاب، وهذا يدل على اشتهار ذلك بينهم، ومعرفتهم به، وأنه مما لا يخفى علمه عن العرب، خصوصا قريش وأهل مكة، وقد قالت عائشة رضى الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين يستطعمان.

---

(١) الروض الأنف: (١/ ١٨١).

وقال البيضاوى: الخطاب للرسول، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها، وسمع بالتواتر أخبارها، فكأنه يراها[(١)].

وقال البغوى: قال مقاتل: كان معهم فيل واحد. وقال الضحاك: كانت الفيلة ثمانية. وقيل: اثنا عشر سوى الفيل الأعظم، وإنما وحدها لأنه نسبها إلى الفيل الأعظم. وقيل: لو فاق رءوس الآى: **﴿ألم يجعل كيدهم فى تضليل﴾** أى مكرهم وسعيهم فى تخريب الكعبة ضالا، حتى لم يصلوا إلى الكعبة، ولا إلى ما أرادوه بكيدهم. وقال مقاتل: فى خسارة. وقيل: بطلان **﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾**: كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضا. وقال أبو عبيدة: **﴿أبابيل﴾**: جماعات فى تفرقة. يقال: جاءت الخيل أبابيل من ههنا وههنا **﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾**. قال ابن مسعود: صاحت الطير ورمتهم بالحجارة فزادتها شدة، فما وقع حجر منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، فإن وقع على رأسه خرج من دبره[(٢)].

وقال البيضاوى: **﴿من سجيل﴾** من طين متحجر. **﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾**: كورق زرع وقع فيه الأكال، وهو أن يأكله الدود، أو أكل حبه فبقى صفرا منه، أى خاليا[(٣)].

وقال البغوى: كزرع وتبن أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرقت أجزاؤه، شبه قطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث. قال مجاهد: العصف ورق الحنطة[(٤)].

والحاصل المقصود من هذه السورة: أن الله تعالى أخبر النبى ﷺ بما فعله سبحانه مع من قصد هدم الكعبة الشريفة كعبته سبحانه وبيت جلاله وهيبته، ليكون تقوية وتطمينا للنبى ﷺ فى مقاساة عداوة الجهال من كفار قريش، وسفهاء العرب الذين لم يؤمنوا، وتبشيرا له من الله تعالى، وإعلاما بأنه منصور على أعدائه، ومحفوظ من كل ما يشينه، كما أن الكعبة حفظت ممن أراد هدمها، ورفع الله تعالى مقدارها، وأبقى عظمتها إلى يوم القيامة.

فكانت ولادته ﷺ فى ذلك العام رحمة للمؤمنين، وكعبة لتوجه أسرار الموحدين،

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٨١١).
(٢) تفسير البغوى: (٤/ ٥٢٨).
(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٨١١).
(٤) تفسير البغوى: (٤/ ٥٢٩).

في كل وقت وحين.

قال الله تعـالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال البيضاوى: ﴿من أنفسكم﴾: من جنسكم، عربى مثلكم[(١)].

وقال البغوى ﴿من أنفسكم﴾. أى تعرفون حسبه ونسبه. قال السدى: من العرب، من بنى إسماعيل ﴿عزيز عليه ما عنتم﴾. أى عنتكم، وهو دخول المشقة والحضرة عليكم. وقال ابن عباس: ما ضللتم. وقال الضحاك والكلبى: ما أثمتم ﴿حريص عليكم﴾ أى على إيمانكم وصلاحكم. وقال قتادة: حريص على ضالكم أن يهديه الله ﴿بالمؤمنين رءوف رحيم﴾. قيل: رءوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين[(٢)].

وحاصل المقصود من هذه الآية أن الله تعالى ذكر المؤمنين بالنبى ﷺ أنه أنعم عليهم بولادته فيهم، وإرساله إليهم، وهو موصوف بأوصاف الكمال، ومتخلق بالأخلاق العظيمة وشريف الأحوال، وأنه رءوف يثنى على مطيعهم، ويغضى عن مسيئهم، وأنه رحيم بصغيرهم وكبيرهم، فالواجب عليهم أن يؤمنوا به كمال الإيمان، وأن يطيعوه فى كل ما أخبرهم عنه عن الخصال الحميدة، ونهاهم عنه من رذائل الأعمال، فإنه الصدوق الأمين، والنور المبين.

حكاية

ذكر الشيخ أبو محمد جبر بن محمد القرطبى فى كتابه: الملاذ والاعتصام بالصلاة على النبى عليه السلام عن أحمد بن على بن ثابت قال: سمعت أبا القاسم عبيد الله الخفاف المعروف بابن النقيب يقول: مشى الشبلى إلى أن جاء إلى مسجد أبى بكر بن مجاهد، فدخل على أبى بكر، فقام إليه، فتحدث أصحاب ابن مجاهد فى ذلك، وقالوا لأبى بكر: أنت لم تقم لعلى بن عيسى الوزير وتقوم للشبلى؟ فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله ﷺ؟ رأيت رسول الله ﷺ فى النوم فقال لى: يا أبا بكر، إذا كان فى غد يدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا جاءك فأكرمه.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٢٧١).

(٢) تفسير البغوى: (٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك أو أكثر، رأيت رسول الله ﷺ ثانيا فقال لى: أكرمك الله كما أكرمت رجلا من أهل الجنة. فقلت: يا رسول الله، بم استحق الشبلى هذا منك؟ قال: هذا رجل يصلى خمس صلوات يذكرنى إثر كل صلاة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].. يقول ذلك ثمانين سنة، أفلا أكرم من يفعل هذا؟.

المجلس الثالث

فى الربا

أخرج مسلم عن جابر قال: **لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكـاتبه وشاهديه وقال: «هم سواء»**(١).

ومعنى «لعن» دعاء الله تعالى أن يطرد ويبعد عن رحمته.

فقول الإنسـان عن غيره: لعنه الله. دعـاء منه بأن الله تعالى لا يرحمه، ضـد قوله عنه: رحمـه الله، وهو الدعاء بأن الله تعالى يرحـمه. وآكل الربا أعم ممن يرابى ويأكل منه، أو لم يرابى ويعلم أنه ربا ويأكل منه، بخلاف ما إذا لم يعلم أو شك أو ظن، فإنه ليس بآكل الربا، حتى يعلم أو يتيقن أو يغلب عليه الظن. «وموكله»، أى مطعمه لغيره وإن لم يعلم ذلك الغـيـر أنه ربا. «وكـاتبـه» أى الذى يكتب المبـايعـة بين المتـرابيين. «وشاهديه» أى اللذين يشهدان به.

وقول النبى ﷺ: «هم سواء» أى مستوون فى الإتيان بالحرام، وهذا تصريح بتحريم كتابة المبايعة بين المترابيين والشهادة عليها.

وأما بـيان الربا فـهو: فـضل مال خـال عن عوض بمعـيار شـرعى مشـروط لأحد المتعـاقدين. فقوله: فـضل مال، بيان لحـقيقـة الربا، إذ لا يكون الربا إلا فى الأموال. وقوله: خـال عن عوض، احتـراز عما إذا كان له عـوض، كما إذا باع درهمين فـضة بدرهم فـضة وفلس. وقـوله: بمعيـار شرعى؛ احتـراز عمـا إذا لم يدخل تحت المعـيار الشرعى، كبيع حفنة من الحنطة بحفنـتين، وتفاحة بتفاحتين، وفلس بفلسين، وذرة من ذهب أو فضة مما لا يدخل تحت الوزن بمثليـهما. وقوله: مشروط، احتـراز عما إذا كان بغير شرط، فإنه ليس بربا. وقوله: لأحد المتعاقدين، يعنى: لو شرط لغيرهما لا يكون ربا.

وعلة الربا عندنا: الوزن أو الكيل مع الجنس. فـإن وجد الوزن أو الكيل مع الجنس حرمت الزيادة والأجل. وإن عدما حلت الزيادة والأجل. وإن وجد الوزن أو الكيل ولم

(١) مسلم فى المساقاة: (١٥٩٨/ ١٠٦).

يوجد الجنس حلت الزيادة وحرم الأجل.

وأما الحيلة فى دفع الربا وهو بيع العينة الذى اشتهر فى زماننا فإنه ليس بربا، ولكنه مكروه كراهة تحريم، لورود الأحاديث الشريفة بالنهى عن ذلك.

والحاصل من معنى الحديث المذكور أن النبى ﷺ نهى عن الربا، حتى وصل إلى لعن فاعله والمعين عليه تنفيرا منه، وتقبيحا له، فإن حرمته مما وقع الإجماع عليها، وهى معلومة من الدين بالضرورة، فيكفر مستحله، وتجب المسارعة بالتوبة منه.

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة: ٢٧٥ - ٢٧٩].

قوله: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ قال البيضاوى: أى الآخذون له، وإنما ذكر الأكل لأنه أعظم منافع المال، ولأن الربا شائع فى المطعومات، وهو زيادة فى الأجل، بأن يباع مطعوم بمطعوم، أو نقد بنقد إلى أجل، وفى العوض بأن يباع أحدهما بأكثر منه من جنسه(١).

وقال البغوى: ﴿الذين يأكلون الربا﴾ أن يعاملون به، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال ﴿لا يقومون﴾ يعنى يوم القيامة من قبورهم ﴿إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾. أى الجنون، ومعناه أن آكل الربا يبعث يوم القيامة وهو كمثل المصروع(٢).

قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٦٣).

(٢) تفسير البغوى: (١/ ٢٦١).

قال البيضاوى: أى ذلك العقاب بسبب أنهم نظموا البيع والربا فى سلك واحد، لإفضائهما إلى الربح، فاستحلوه استحلاله[١].

وقال البغوى: أى ذلك الذى نزل بهم من كونهم يبعثون يوم القيامة كمثل المصروعين بقولهم هذا، واستحلالهم إياه، وذلك -يعنى سبب نزول الآية- أن أهل الجاهلية كان إذا حل ماله على غريمه فطالبه به يقول الغريم لصاحب الحق: زدنى فى الأجل حتى أزيدك فى المال. فيفعلان ذلك، ويقولون: سواء علينا الزيادة فى البيع بالربح، أو عند المحل لأجل التأخير، فكذبهم الله تعالى[٢].

وقال: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه﴾ تذكير وتخويف ﴿فانتهى﴾ عن أكل الربا ﴿فله ما سلف﴾ أى ما مضى من ذنبه قبل النهى مغفور له ﴿وأمره إلى الله﴾ بعد النهى إن شاء أعانه حتى يثبت على الانتهاء، وإن شاء خذله حتى يعود. وقيل: وأمره إلى الله فيما يأمره وينهاه ويحل له ويحرم عليه، وليس له من أمر نفسه شىء.

﴿ومن عاد﴾ بعد التحريم إلى أكل الربا باستحلاله ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. قال البيضاوى: لأنهم كفروا به، يعنى باستحلالهم ما حرم الله ﴿يمحق الله الربا﴾ يذهب ببركته، ويهلك المال الذى يدخل فيه ﴿ويربى الصدقات﴾ يضاعف ثوابها، ويبارك فيما أخرجت منه[٣].

وقال البغوى: ﴿يمحق الله الربا﴾ أى: ينقص ويهلكه ويذهب بركته. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿يمحق الله الربا﴾ يعنى لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا حجا ولا صلة. ﴿ويربى الصدقات﴾. أى يثمرها ويبارك فيها فى الدنيا، ويضاعف الأجر والثواب فى العقبى ﴿والله لا يحب كل كفار﴾ بتحريم الربا ﴿أثيم﴾ فاجر بأكله[٤].

وقال البيضاوى: ﴿والله لا يحب﴾ لا يرضى أو لا يحب محبته للتوابين ﴿كل كفار﴾ مصر على تحليل المحرمات ﴿أثيم﴾ منهمك فى ارتكابه[٥].

---

(١) أنوار التنزيل: ص (٦٣).
(٢) تفسير البغوى: (١/ ٢٦٢).
(٣) أنوار التنزيل: ص (٦٣).
(٤) تفسير البغوى: (١/ ٢٦٤).
(٥) أنوار التنزيل: ص (٦٣).

قوله: ﴿وذوروا ما بقى من الربا﴾. قال البيضاوى: واتركوا بقايا ما شرطتم على الناس ﴿من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ بقلوبكم، فإن دليله امتثالها ما أمرتم به.

روى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش، فطالبوهم عند المحل بالمال والزيادة فنزلت(١).

وفى تفسير البغوى قال عطاء وعكرمة: نزلت فى العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا فى التمر، فلما حضر الجذاذ قال لهما صاحب التمر، إن أنتما أخذتما حقكما لا يبقى لى ما يكفى عيالى، فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما؟ ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنهاهما، وأنزل الله تعالى هذه الآية، فسمعا وأطاعا، وأخذا رءوس أموالهما(٢).

﴿فإن لم تفعلوا﴾ أى لم تذروا ما بقى من الربا ﴿فأذنوا﴾ قرأ حمزة وشعبة بالمد وكسر الذال.

أى فاعلموا غيركم أنكم حرب لله ورسوله. وقرأ الآخرون بالقصر وفتح الذال أى فاعلموا أنتم وأيقنوا بحرب من الله ورسوله.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يقال لآكل الربا يوم القيامة: خذ سلاحك للحرب.

قال أهل المعانى: حرب الله النار، وحرب رسوله السيف. ﴿وإن تبتم﴾ أى تركتم استحلال الربا ورجعتم عنه ﴿فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون﴾ بطلب الزيادة ﴿ولا تظلمون﴾ بالنقصان عن رأس المال.

وقال البيضاوى: ويفهم منه أنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس مالهم، وهو سديد على ما قلنا، إذ الحصرعلى التحليل مرتد، وماله فىء(٣).

وحاصل معنى الآية أن الله توعد أهل الربا شديد الوعيد، وأخبر أن أحوالهم يوم القيامة كأحوال أهل الجنون؛ لأنهم لو يعقلون لامتثلوا أمر الله تعالى فى الدنيا، بإيمانهم بحرمة الربا، وتركهم لمعاطاته، وأخبر أنه يحاربهم هو ورسوله، ولا تقع المحاربة إلا بين

---

(١) أنوار التنزيل: ص (٦٣).

(٢) تفسير البغوى: (١/٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) أنوار التنزيل: ص (٦٣).

العدوين، فأهل الربا يعادون الله ورسوله بعدم إيمانهم بحرمته ومعاطاتهم له، والله يعاديهم على ذلك ورسوله ومن يعاديه الله تعالى ورسوله ويحاربه فهو مأخوذ لا محالة فى الدنيا والآخرة.

حكاية

قال الإمام الحدادى فى عيون المجالس: حكى عن حبيب العجمى أنه كان مرابيا، وكان قد أعطى لرجل مالا، فأرسل إليه مرات يطلب منه ماله، فذهب إليه مرة فرآه فى مجلس الحسن البصرى، فسمع الحسن يكرر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦]. فتأوه حبيب وقال: بلى قد آن، وأدخل رأسه فى ردائه وجلس إلى أن تفرق الناس من مجلس الحسن، فرفع رأسه، فوقع بصره على ذلك الرجل المطلوب منه الدين، فخاف المديون منه، فقال له حبيب: لا تخف فإنى الآن أنا خائف، وقد وهبت لك جميع مالى. ثم إن حبيبا رجع فمر فى طريقه على صبيان يلعبون، فقال بعضهم لبعض: تنحوا عن الطريق، فإن حبيبا آكل الربا قد جاء، حتى لا يقع غباره علينا، فيعذبنا الله بشؤمه. فسمع حبيب كلام الصبيان، فلما وصل إلى داره أمر مناديا ينادى: من أراد المال فليأت إلى دار حبيب، فتوجه الناس إلى داره، وأخذوا جميع أمواله وأموال زوجته، وجميع ما وجدوا فى داره، ثم إن حبيبا لبس مسحا [1] وخرج يعبد الله تعالى، وكان عليه مال لقوم، فأرسلوا إلى حبيب يطلبون أموالهم، فقال حبيب للرسول: قل لهم: يرسلوا إلى أكياسهم مختومة حتى أرسل لهم أموالهم فيها، فرجع الرسول وأخبرهم بذلك، فأرسلوا الحبيب الأكياس مختومة ووضعوها عنده، فلما جن الليل قال حبيب: إلهى وسيدى ومولاى، أنت القادر على قضاء دينى، فلما طلع النهار وجد فى كل كيس مال صاحبه بقدرة الله تعالى، فأرسل الأكياس إلى أصحابها، ثم إن حبيبا صحب الحسن البصرى، فمشى الحسن وأصحابه حتى انتهوا إلى بحر، فوقفوا ينتظرون سفينة ليمروا عليها، فمرت سفينة فركب الحسن وأصحابه ومشى حبيب على الماء حتى قطع إلى الجانب الآخر، فتعجبوا منه، فقال الحسن: كيف عبرت؟ فقال: يا حسن أنت ترتجى قطع مفاوز الدنيا بالعلم، وأنا أرتجى قطع مفاوز الآخرة بالقلب، وأنت تسعى فى تسويد الكواغد البيض، وأنا أسعى فى تبييض القلب الأسود، فشتان ما بين المنزلتين. فانظر كيف أعطاه الله هذه المنزلة العظيمة، والمنحة الجسيمة، بسبب توبته عن الربا، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) المسح: اللباس الخشن.

المجلس الرابع

فى شرب الخمر

أخرج الترمذى فى سننه وقال: هذا حديث حسن عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صلاة، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب لم يتب الله عليه، وسقاه من نهر الخبال»**.

قيل: يا أبا عبد الرحمن: وما نهر الخبال؟ قال: نهر من صديد أهل النار[1].

قال فى كتاب النهاية فى غريب الرواية لابن الأثير: جاء فى الحديث أن الخبال عصارة أهل النار[2]. والخبال فى الأصل الفساد، ويكون فى الأفعال والأبدان والعقول.

وقال فى مصباح اللغة للفيومى: والخبال يطلق على الفساد والجنون.

وأما الخمر فقال فى شرح الدرر: حرم الخمر وإن قلت، وهى النيىء من العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، خص هذا الاسم بهذا الشراب بإجماع أهل اللغة. وقيل: كل مسكر خمر؛ لأنها إنما سميت خمر لمخامرة العقل، وسائر المسكرات كذلك.

قلنا: لا نسلم ذلك، بل إنما سميت به لاختمارها.

قال ابن الأعرابى: سميت الخمر خمرا لأنها تركت فاختمرت، واختمارها تغير ريحها، كذا فى الصحاح.

ولو سلم تسميتها خمر لمخامرة العقل فلا نسلم أن رعاية المعنى سبب للإطلاق، بل سبب للوضع وترجيح الاسم على الغير، فإن القارورة سميت بها لقرار الماء فيها، ولا تطلق على الكوز، وقد تقرر أن القياس لا يجرى فى اللغة.

---

(١) إسناده حسن: الترمذى فى الأشربة (١٨٦٢).

(٢) النهاية فى غريب الحديث: (٢/ ٨).

ثم القذف بالزبد شرط عند أبى حنيفة وعند صاحبيه أبى يوسف ومحمد، فإذا اشتد وصار مسكرا قذف بالزبد أولا.

وقال فى تنوير الأبصار: حرم قليلها وكثيرها، وهى نجسة نجاسة مغلظة كالبول، ويكفر مستحلها، وحرم الانتفاع بها، ولا يجوز بيعها، ويحد شاربها وإن لم يسكر منها، وشارب غيرها من الأنواع الثلاثة الآتية يحد إن سكر، ولا يؤثر فيها الطبخ، ولا يجوز بها التداوى، ويجوز تخليلها ولو بطرح شىء فيها.

وأما الطلا، وهو عصير العنب يطبخ حتى يذهب ثلثه، وقيل: حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، وهو الصواب، ويقال له المثلث، وهو حرام إذا غلا واشتد وقذف بالزبد عند أبى حنيفة، وعند صاحبيه يكفى الاشتداد وإن لم يقذف بالزبد ونجاسته كنجاسة الخمر، وكذلك السكر بفتحتين، وهو النيىء من ماء الرطب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد كذلك، ونقيع الزبيب كذلك. والكل حرام إذا غلا واشتد، وحرمة هذه الثلاثة دون حرمة الخمر، ولا يكفر مستحلها.

ويحرم أكل البنج والحشيشة والأفيون، لكن دون حرمة الخمر، ولا يكفر مستحلها، وإن أكل منها شيئا لا حد عليه، وإن سكر يعزر بما دون الحد.

قوله: **«لم يقبل الله له صلاة»**. إنما خص عدم القبول للصلاة بالذكر -والمراد لا يقبل له عمل من الأعمال- لأن الصلاة أفضل الأعمال الشرعية، وهى تالية للإيمان فى كثير من الآيات، وأول ما يحاسب عليه العبد، فإن قبلت قبل سائر الأعمال، وإن ردت رد سائر الأعمال، فإذا لم تقبل مع شرفها على سائر الأعمال ممن شرب الخمر فلا يقبل ما هو أدنى منها بالطريق الأولى، وإذا لم تقبل الأعمال فلا ثواب لها عند الله تعالى، ولا فائدة لها فى الآخرة، فكأنه لم يصل ولم يعمل شيئا من أعمال البر، وإن سقط الفرض عن ذمته كما قالوا فيمن صلى رياء أنه يسقط عنه الفرض ولا يقبل منه، فلا ثواب له عليه لأجل المعصية.

وإنما خص عدم القبول بالأربعين صباحا؛ لأن الأربعين مدة كل طور من أطوار النطفة الواقعة فى رحم الأم، كما ورد أن النطفة إذا وقعت فى الرحم تكون نطفة أربعين يوما، ثم تصير علقة أربعين صباحا، ثم تصير مضغة أربعين صباحا، فكذلك شارب الخمر يبقى فى طوره ذلك هذه المدة حتى ينتقل إلى طور آخر بعد الأربعين، ولذلك

كانت مدة ميقات موسى أربعين يوما حتى يذهب عنه طور مخالطة الناس، ويدخل فى طور التجريد عن أدناس البشرية، فيستعد عليه السلام لقبول التجلى الإلهى، وعلى هذا الخلوة الأربعينية عند الصوفية، ينتقل فيها السالك من طور الغفلة إلى طور اليقظة، ويصفو من كدورات الأوهام، ووساوس الأفهام.

وإنما لم تقبل التوبة فى المرة الرابعة؛ لأنه اعتاد على المعصية والتوبة ثلاث مرات، والعادة ثابتة بثلاث مرات، متحققة منه، وذلك لأنه فى حال التوبة فى المرة الرابعة نوى أن يعود بحسب عادته فى ذلك، ونيته العود إلى المعصية مبطلة لتوبته؛ لأن من شرط التوبة العزم على ألا يعود إلى الذنب أصلا.

وهذا الحديث جاء على عادة الناس، ومبناه الزجر عن الإصرار على فعل المعصية، فإذا مات من غير توبة صحيحة كما ذكرنا يموت عاصيا مرتكبا للكبيرة، ويسقى من نهر الخبال، وهو الذى يجرى من صديد أهل النار.

وحاصل ذلك أن استعمال كل مسكر من الخمر وغيره موجب لفساد العقل الذى شرف الله به الإنسان، وفى ذلك إخلال بمقتضى الإنسانية، ومسخ للخلقة بزوال شرف العقل، والالتحاق بالحيوان، وفيه تسفيه الخلقة الإلهية، فيغضب الرب على فاعل ذلك، ويوجب عقابه فى الدنيا بلزوم الحد عليه، وفى الآخرة بعذاب النار، وشرب صديد أهل النار، وهو من أشد النكال، بسبب متابعة الشيطان والهوى.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾

[المائدة: ٩٠، ٩١].

قوله: ﴿والميسر﴾ قال البغوى: أى القمار. قال قتادة كان الرجل يقامر على الأهل والمال، ثم يبقى حزينا مسلوب الأهل والمال.

﴿والأنصاب﴾ يعنى الأوثان، سميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها.

﴿والأزلام﴾ يعنى القداح التى كانوا يستقسمون بها[1]، وفى الصحاح: القدح السهم

(١) تفسير البغوى: (٢/ ٦٢).

قبل أن يراسن ويركب نصله، والجمع قداح.

وقال البيضاوى فى بيان الاستقسام بالأزلام: وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا ضربوا له ثلاثة قداح مكتوب على أحدها: أمرنى ربى، وعلى الآخر: نهانى ربى، والثالث غفل. فإن خرج الآمر مضوا على ذلك، وإن خرج الناهى تجنبوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية. ومعنى الاستقسام: طلب معرفة ما قسم لهم دون ما لم يقسم بالأزلام. وقيل: هو استقسام الجزور بالأقداح على الأنصباء المعلومة(١).

قوله: ﴿رجس﴾ قال البغوى خبيث مستقذر. ﴿من عمل الشيطان﴾: من تزيينه(٢).

قوله: ﴿فاجتنبوه﴾ قال البيضاوى: الضمير للرجس، أو لما ذكر، أو للتعاطى.

﴿لعلكم تفلحون﴾: لكى تفلحوا بالاجتناب عنه.

واعلم أن الله تعالى أكد تحريم الخمر والميسر فى هذه الآية بأن صدر الجملة بأيها، وقرنها بالأنصاب والأزلام، وسماهما رجسا، وجعلهما من عمل الشيطان، تنبيها على أن الاشتغال بهما شر بحت غالب، وأمر بالاجتناب عن عينهما، وجعله سببا يرجى منه الفلاح، ثم قرر بذلك بأن بين ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية المقتضية للتحريم فقال ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر﴾، وإنما خصهما بإعادة الذكر وشرح ما فيهما من الوبال تنبيها على أنهما المقصودان بالبيان.

وذكر الأنصاب والأزلام للدلالة على أنهما فى الحرمة والشر(٣).

﴿ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾ وخص الصلاة من الذكر بالإفراد للتعظيم، وللإشعار بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان، من حيث إنها عماده، والفارق بينه وبين الكفر. ثم أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام فقال: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ إيذانا بأن الأمر فى المنع والتحذير بلغ الغاية.

وقال البغوى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾ يعنى انتهوا، لفظه استفهام، ومعناه أمر.

---

(١) أنوار التنزيل: ص (١٤٠).

(٢) تفسير البغوى: (٢/ ٦٢).

(٣) أنوار التنزيل: ص (١٦١).

وأما سبب نزول الآية فإنه لما نزل تحريم الخمر قال عمر بن الخطاب: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩][١]. فلما قرئت على عمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النساء: ٤٣]، فلما قرئت على عمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزل هذه الآية. فقال عمر: انتهينا[٢].

حكاية

قال اليافعي في روض الرياحين: حكي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته فقال: كنت شرطيا وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتا، فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبها حبا، وألفتني وألفتها، فكنت إذا وضعت السكر جاءت إلي وجاذبتني إياه، وهرقته على ثوبي، ثم إنها لما تم لها سنتان ماتت، فأكبدني الحزن عليها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة بت ثملا من الخمر، ولم أصل العشاء، فرأيت كأن أهل القبور خرجوا وحشروا وأنا معهم، فسمعت حسا من ورائي، فإذا أنا بتنين عظيم قد فتح فاه مسرعا نحوي، فمررت بين يديه هاربا مرعوبا، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثياب طيب الرائحة، فسلمت عليه، فرد علي السلام، فقلت له: أجرني. فقال: أنا ضعيف، ولا أقدر على هذا، فوليت هاربا حتى وصلت إلى طبقات النيران، وكدت أهوي فيها، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها، فرجعت مطمئنا إلى قوله، والتنين في طلبي، حتى مررت على ذلك الشيخ فقال لي: سر إلى هذا الجبل، فرأيت فيه كوى مخرقة، ولكل كوة مصراعان من الذهب الأحمر، عليها ستور معلقة، فصاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع، وأشرقوا، فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوه، فإذا الستور قد رفعت، والمصاريع قد فتحت، فأشرقت على أطفال بوجوه كالأقمار، فوجا بعد فوج، فإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرقت معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية

---

(١) أنوار التنزيل: ص (١٦١).

(٢) إسناده صحيح: الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٤٩).

السهم حتى مثلت بين يدى، فمدت يدها الشمال إلى يدى اليمنى، فتعلقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربا، ثم أجلستنى وقعدت فى حجرى وضربت بيدها اليمنى فى لحيتى فقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ١٦﴾ [الحديد: ١٦]، فبكيت وقلت: يا بنية، وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: نحن أعرف به منكم، فقلت: أخبريني عن التنين. قالت: ذاك عملك أراد أن يقذفك فى جهنم. قلت: فأخبرينى عن الشيخ الذى مررت به فى طريقى. قالت: ذاك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة لدفع عملك السيىء. قلت: فما تصنعون فى هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين أسكننا الله فيه إلى قيام الساعة، ننتظركم تقدمون علنيا فنشفع لكم. فانتبهت فزعا، فلما أصبحت فارقت ما كنت عليه، وتبت إلى الله عز وجل، وهذا سبب توبتى.

المجلس الخامس

فى العدوى والطيرة

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»**[١].

وأخرجا عنه أيضا قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوى ولا صفر ولا هامة»** فقال أعرابى: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون فى الرمل كأنها الظباء، فيخالطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله ﷺ: **«فمن أعدى الأول»**[٢].

أما العدوى فقال أكمل الدين فى شرح مشارق الأنوار: اسم من الإعداء، يقال: أعداه الداء يعديه إذا أصابه ما بصاحب الداء.

الطيرة بكسر الطاء وفتح الياء هو المشهور.

وحكى القاضى عياض أن فيهم من يسكن الياء، ومعناه التشاؤم، ولا تستعمل إلا فيما يسوء.

والهامة. قال النووي: أصلها أن العرب كانت تتشاءم بالهامة، وهى الطائر المعروف من طير الليل. وقيل: هى البومة. قالوا: كانت إذا سقطت على دار أحدهم يراها ناعية له نفسه أو بعض أهله، وهذا تفسير مالك بن أنس. والثانى أن العرب كانت تعتقد أن عظام الميت أو روحه تنقلب هامة تطير. وهذا تفسير أكثر العلماء، وهو المشهور[٣].

ويجوز أن يكون المراد النوعان، فإنهما باطلان، فبين النبى ﷺ إبطال ذلك وضلالة الجاهلية فيما تعتقده من ذلك، وهى الهامة بتخفيف الميم على المشهور الذى لم يذكر الجمهور غيره. وقيل بتشديد الميم، قاله جماعة.

وأما صفر بفتحتين ففيه تأويلان:

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الطب (٥٧٠٥) ومسلم فى السلام (٢٢٢٠/١٠٢).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الطب (٥٧١٧، ٥٧٧٠)، ومسلم فى السلام (٢٢٢٠/١٠١).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٤/ ٢١٥، ٢١٦).

أحدهما : تأخيرهم تحريم المحرم إلى صفر، وهو النسيء الذى كانوا يفعلونه. وبهذا قال مالك وأبو عبيدة.

والثانى: أن الصفر دواب فى البطن، وهى دود كانوا يعتقدون أنه فى البطن، وأنه ينفتح عند الجوع، وربما قتلت صاحبها، وكانت العرب تراها أعدى من الجرب،

وهذا التفسير هو الصحيح، ويجوز أن يكون المراد هذا والأول جميعا، وإن الصفرين جميعا باطلان لا أصل لهما، ولا تعريج على واحد منهما. ويمكن أن يكون المراد أن الجاهلية كانوا يتشاءمون بشهر صفر، ويعتقدون أن المصائب والأحزان تكثير فيه، فنفى ذلك النبى ﷺ على أبلغ وجه بنفيه.

قوله: **«لكأنها الظباء»** . اللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لكأنها. وفى رواية أخرى **«كأنها»** بلالام. والمعنى أنها سالمة من كل داء، صحيحة البدن، نشيطه للسير، خنيفة الجسم.

وقوله: **«فمن أعدى الأول»** معناه: أن البعير الأول الذى جرب من أجربه؟ أى وأنتم تعلمون وتعترفون أن الله تعالى هو الذى أوجد ذلك فيه من غير ملاصقته لبعير أجرب، فاعلموا أن البعير الثانى والثالث وما بعدهما إنما جرب بفعل الله تعالى وإرادته لا بعدوى تعدى بطبعها.

وأما قوله ﷺ: **«لا يوردن ممرض على مصح»**[1] فيوردن بكسر الراء، والنون المشددة للتوكيد، ويصح سكونها تخفيفا. وفى رواية أخرى بحذف النون. والممرض والمصح بكسر الراء والصاد، ومفعول يوردن محذوف، أى لا يوردن إبله المراض. قال العلماء: الممرض صاحب الإبل المراض، والمصح صاحب الإبل الصحاح.

ومعنى الحديث: لا يورد صاحب الإبل المراض إبله على إبل صاحب الإبل الصحاح؛ لأنه ربما أصابها المرض بفعل الله تعالى وتقديره الذى أجرى العادة به لا بطبعها، فيحصل لصاحبها ضرر بمرضها، وربما حصل له ضرر أعظم من ذلك باعتقاده العدوى بطبعها فيكفر.

وظاهر قوله ﷺ : **«لا عدوى»**. وقوله: **«لا يوردن ممرض على مصح»**. كما ذكرنا

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الطب (٥٧٧١) ومسلم فى السلام (٢٢٢١/ ١٠٤).

يوهم التناقض؛ لأن الأول يقتضى نفى العدوى بصريح قوله: «**لا عدوى**» والثانى يقتضى ثبوت العدول بظاهر قوله: «**لا يوردن ممرض على مصح**».

ونظير ذلك ما ورد فى الحديث من قوله عليه السلام: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»(١).

وقوله عليه السلام فى الطاعون: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها**»(٢).

قال العلماء: فيجب الجمع بين هذه الأحاديث وهى صحيحة. قالوا: وطريق الجمع أن قوله: «**لا عدوى**»، المراد به ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده من أن المرض يعدى بطبعه لا بفعل الله تعالى. وأما حديث: «**لا يوردن ممرض على مصح**» وأمره بالفرار من المجذوم ونهيه عن الدخول إلى موضع الطاعون، فأرشد فيه إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده فى العادة بفعل الله تعالى وتقديره.

فنفى فى الحديث الأول العدوى بطبعها، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدرة الله تعالى وفعله. ويدل على هذا قوله عليه السلام: «**فمن أعدى الأول؟**» يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وتقديره، فكذلك الثانى وما بعدهما. وأرشد فى الحديث الثانى والثالث إلى الاحتراز مما يحصل عنده الضرر بفعل الله تعالى وإرادته وتقديره.

وحاصل المقصود مما ذكر: أن الواجب على كل مكلف أن يعتقد أن الأمور كلها بخلق الله تعالى وتقديره، ولا تأثير لما سواه تعالى فى أثر ما مطلقا، فلا تأثير للطبع والعادة ولا للأسباب كما هو مذهب أهل السنة والجماعة مما هو مقرر فى موضعه من علم التوحيد، ومع الإيمان بذلك واعتقاده ينهى المكلف عن معاطاة ما يوقع فى الشك والالتباس مما يوهم نسبة التأثير إلى غير الله تعالى بالنسبة إلى ظاهر الحال وعموم الناس، لا بالنسبة إليه فى نفسه، كما ورد أن النبى ﷺ أكل مع المجذوم، وورد عنه أيضا أنه قال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**». ففعل فى نفسه على مقتضى ما هو عليه الأمر من أن المؤثر فى الأشياء كلها هو الله تعالى، وشرع ذلك لمن كان ثابت الإيمان، قوى اليقين، ونهى غيره من أهل الغفلة عن معاطاة ما يوهم خلاف الحق لضعف يقينه، وتطرق الشك إليه.

---

(١) البخارى فى الطب (٥٧٠٧).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الطب (٥٧٢٨) ومسلم فى السلام (٢٢١٨/٩٥).

قال الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ [الحديد: ٢٢].

قال البغوى: ﴿فى الأرض﴾ يعنى قحط المطر وقلة النبات ونقص الثمار.

﴿ولا فى أنفسكم﴾ يعنى الأمراض وفقد الأولاد ﴿إلا فى كتاب﴾، يعنى اللوح المحفوظ.

﴿من قبل أن نبرأها﴾ من قبل أن نخلق الأرض والأنفس. وقال ابن عباس: من قبل أن نبرأ المصيبة[1].

وقال البيضاوى:

﴿إلا فى كتاب﴾، أى مكتوبة فى اللوح مبينة فى علم الله تعالى[2].

وحاصله أن كل شىء يقع فى الدنيا من المصائب العامة والخاصة ثابت فى الأزل فى حضرة علم الله تعالى، ومكتوب فى اللوح المحفوظ من حين خلق اللوح المحفوظ قبل خلق المكلفين من الإنس والجن، وكل ذلك سهل على الله تعالى، يسير عليه، لا يشغله فعل شىء من ذلك عن شىء آخر، ولا ينسى شيئا منه باشتغاله بشىء آخر، مع كثرته وعدم إحصائه، على كثرة الأوقات والأزمان، واختلاف الطبائع والعادات الوهمية، فلا تأثير لعادة ولا لطبع ولا لطيرة ولا لتشاؤم ولا لعدوى ولا لهامة ولا لصفر ولا لشىء من الأشياء مطلقا وإن ارتبطت التأثيرات الصادرة من قدرة الله تعالى بهذه الأسباب، لأنها أيضا تأثيرات من قدرة الله تعالى، ولا تأثير للأثر، فالجميع آثار ترتب بعضها على بعض فى علم الله تعالى وتقديره، فالتطير وهم محض، وجهل صريح، سلكت عليه الجاهلية وأصحاب القلوب الغافلة، والنفوس العمياء عن طريق الهدى من الأمم الماضية وغيرهم، نحو رد الإسلام بالنهى عن ذلك وتقبيحه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) ﴾ [الأعراف: ١٣٠، ١٣١].

---

(١) تفسير البغوي: (٤/٢٩٩).

(٢) أنوار التنزيل: ص (٧١٨).

قال البغوى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أى بالجدب والقحط، لقول العرب: مستهم السنة، أى جدب السنة، وشدة السنة، وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة.

﴿ونقص من الثمرات﴾ أى الغلات بالآفات والعاهات. قال قتادة: أما السنين فلأهل البوادى، وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار لعلهم يذكرون، أى يتعظون، وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عز وجل. فإذا جاءتهم الحسنة، يعنى الخصب والسعة والعافية.

﴿قالوا لنا هذه﴾ أى نحن أهلها ومستحقوها على العادة التى جرت لنا فى سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضلا من الله عز وجل فيشكروا عليها. ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ جدب وبلاء أو ما يكرهون. ﴿يطيروا﴾ يتشاءموا. ﴿بموسى ومن معه﴾ وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾. أى نصيبهم من الخصب والنماء والجدب والخير والشر كله من الله.

وقال ابن عباس: ﴿طائرهم﴾، ما قضى عليهم وقدر لهم. وقيل: ﴿طائرهم﴾: شؤمهم، عند الله ومن قبل الله، أى إنما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله. وقيل معناه: الشؤم العظيم هو الذى لهم عند الله من عذاب النار. ولكن أكثرهم لا يعلمون أن الذى أصابهم من الله[1].

وقال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٣ - ١٩].

وهذا حكاية عن أصحاب القرية، وهم أهل أنطاكية إذا جاءها المرسلون من قبل عيسى عليه السلام، فقالوا لأهل أنطاكية: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾. قالوا: أى أهل

(١) تفسير البغوى: (٢/ ١٩٠).

أنطاكية: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾، تشاءمنا بكم، وذلك أن المطر حبس عنهم، فقالوا: أصابنا هذا بشؤمكم، فقال الرسل لهم: ﴿طائركم معكم﴾ أى شؤمكم معكم بكفركم وتكذيبكم، يعنى أصابكم الشؤم من قبلكم. ﴿أئن ذكرتم﴾، أى وعظتم بالله، وهذا استفهام محذوف الجواب، وتقديره: أئن ذكرتم بالله تطيرتم بنا.

حكاية

ذكر الإمام الدميرى فى كتابه حياة الحيوان عند ذكر الهامة التى تصيح بالليل فيتشاءم بعض الناس بها، قال: روى أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: كنت عند كعب الأحبار وهو عند عمر بن الخطاب، فقال كعب: يا أمير المؤمنين ألا أخبرك بأغرب شيء قرأته فى كتب الأنبياء، إن هامة جاءت إلى سليمان فقالت: السلام عليك يارسول الله، فقال: وعليك السلام ياهامة. ثم قال لها: أخبرينى كيف لا تأكلين الزرع؟ قالت: يانبى الله، إن آدم خرج من الجنة بسببه. قال: وكيف لا تشربين الماء؟ قالت: لأن الله أغرق فيه قوم نوح. قال: كيف تركت العمران وسكنت الخراب؟ قالت: لأن الخراب ميراث الله، قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨]. قال سليمان فما تقولين إذا جلست فوق خربة؟ قالت: أقول: أين الذين كانوا يتمتعون بالدنيا وما فيها. قال سليمان: فما صياحك فى الدار إذا مررت عليها؟ قالت: أقول: كيف ينامون وأمامهم الشدائد. قال: فما بالك لا تخرجين بالنهار؟ قالت: من كثرة ظلم بنى آدم لأنفسهم. قال: فأخبرينى ما تقولين فى صياحك؟ قالت: أقول: تزودوا ياغافلين، تهيئوا لسفركم، سبحان خالق النور. فقال سليمان: ليس فى الطيور طير أنصح لبنى آدم من الهامة، وما فى قلوب الجهال أبغض منها.

المجلس السادس

فى الرقية والتداوى

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عباس قال: خرج علينا النبى ﷺ يوما فقال: **«عرضت على الأمم، فجعل يمر النبى ومعه الرجل، والنبى ومعه الرجلان، والنبى ومعه الرهط، والنبى ليس معه رهط، والنبى ليس معه أحد، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فرجوت أن تكون أمتى، فقيل: هذا موسى فى قومه، ثم قيل: انظر، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فقيل: «هؤلاء أمتك، ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب»** فتفرق الناس ولم يبين لهم، فتذاكر أصحاب النبى ﷺ فقالوا: أما نحن فإنا ولدنا فى الشرك، ولكنا آمنا بالله ورسوله، ولكن هؤلاء أبناؤنا. فبلغ النبى ﷺ فقال: **«هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»**. فقام عكاشة بن محصن فقال: أمنهم أنا يارسول الله؟ قال: **«نعم»** فقام آخر فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: **«سبقك بها عكاشة»**[1].

قوله: **«عرضت على الأمم»**، بالبناء للمجهول، أى عرض الله تعالى الأمم علىّ ليلة المعراج، أو وقت التجليات والواردات حين ورودها على قلبه ﷺ، والرهط من الرجال: مادون العشرة، وقيل: إلى الأربعين. والسواد: الجماعة من الناس.

قوله: **«ومع هؤلاء»**، يعنى مع أمته ﷺ **«سبعون ألفا»** لعل المراد بذلك التكثير دون العدد، وأن المقدار يزيد على ذلك، خصوصا.

وقد جاء فى صحيح مسلم فى رواية أخرى: **«مع كل واحد منهم سبعون ألفا»**[2].

وقوله: **«يدخلون الجنة بغير حساب»** أى لا يحاسبهم الله تعالى على شىء من أعمالهم. لأنهم من شدة توكلهم على الله تعالى حق التوكل كان هو المتصرف بهم فى أعمالهم كلها دون أنفسهم، فلا يدعون شيئا من الأعمال ليحاسبوا عليه.

---

(١) **متفق عليه**: البخارى فى الطب (٥٧٥٢) ومسلم فى الإيمان (٢٢٠/ ٣٧٤) واللفظ للبخارى.

(٢) لم أقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ وهو عند أحمد (٥/ ٣٩٣) بلفظ **«مع كل ألف سبعون ألفا»** بسند صحيح.

قوله: «**فتفرق الناس**»، أى من ذلك المجلس الذى كانوا فيه مع النبى ﷺ ولم يبين لهم النبى ﷺ هؤلاء السبعين ألفا الذين ذكرهم: من هم.

قوله: «**أما نحن**»، يعنى نحن لسنا هؤلاء السبعين ألفا، فولدنا فى الشرك، يعنى كان مولدنا فى زمان الشرك، وعصر الجاهلية. ولكن هؤلاء أبناؤنا، لكونهم ولدوا فى الإسلام، وآمنوا مثل ما آمنا بالله ورسوله.

قوله: «**الذين لا يتطيرون**» أى لا يتشاءمون بشىء من الأشياء أصلا كما سبق بيان ذلك، «**ولا يسترقون**»، أى يفعلون الرقية، «**ولا يكتوون**»، أى يستعملون الكى بالنار، «**وعلى ربهم يتوكلون**»، أى لا على غيره، والحصر مستفاد من تقديم الجار والمجرور.

وحاصله: أن العلماء اختلفوا فى معنى هذا الحديث، فاحتج بعض الناس به على أن التداوى مكروه، ومعظم العلماء على خلاف ذلك، واحتجوا بما وقع فى أحاديث كثيرة من ذكره عليه السلام لمنافع الأدوية والأطعمة، كالحبة السوداء والقسط والصبر وغير ذلك، وبأنه عليه السلام تداوى، وبإخبار عائشة رضى الله عنها بكثرة تداويه، وبما علم من الاستشفاء برقاه.

وبالحديث الذى فيه أن بعض الصحابة أخذوا على الرقية أجرا، فإذا ثبت هذا حمل ما فى الحديث المذكور على قوم تركوا ذلك توكلا على الله، ورضا بقضائه وبلائه، يعنى لم يقصدوا فعله ولا الإتيان به، ولو أجراه الله تعالى عليهم، وخلقه لهم بطريقة الفيض والإلهام لا يمتنعون منه، حيث لم يقصدوا الاستشفاء بذلك، وإنما استشفاؤهم بالله تعالى وحده الذى يخلق لهم ما يشاؤون من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، ولا يشهدون مؤثرا فى الاستعمال وفى حصول الشفاء إلا الله تعالى، كما قال مخاطبا النبى ﷺ بطريق الأمر أن يصرح بمعنى التوكل عليه سبحانه: ﴿[وما][1] **لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم.....**﴾ أى لا أعلم أى فعل يفعله الله تعالى لى من اتكالى عليه سبحانه وتسليمى نفسى إليه يفعل بى ما يشاء.

وإن الطب بهذا المعنى غير قادح فى التوكل، إذ تطبب النبى ﷺ والفضلاء من السلف، لأن معنى التوكل: جعل الله تعالى وكيلا عنهم فى التصرف فى جميع أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، بحيث لا يتصرفون، أى لا يدعون التصرف مع وكيلهم

---

(١) فى المخطوطة «قل لا» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه وهى الآية: ٩ من سورة الأحقاف.

الحق فى شىء أصلا، وتصرفه تعالى لهـم بما شاء وأراد من أنواع التطبب غير قادح ولا منتقص لمقام توكلهم وتسليمهم وتفويضهم إليه. ومعلوم أن كل سبب مقطوع به كالأكل والشرب والغذاء والرى لا يقدح فى التوكل أيضا، لأن ذلك ليس من تصرفهم، إنما هو من تصرف الـله تعالى بهم، حتـى لو تصرف أحد منهـم لنفسه بشىء بطـريق الدعوى لذلك غير متكل فيه على الله تعالى حتى يتـصرف له الله تعالى به دون نفسه كان منافيا للتوكل.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيرى: اعلم أن مـقام التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافى التـوكل بالقلب بعدما تحقق العـبد أن الثقة من قبل الـله تعالى، فإن تعسر شىء فبـتقديره، وإن تيسر فبتيـسيره، وقال سهل بن عبد الله التـسترى: التوكل: الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

وقال العـلامة ابن رجب فى كتـابه اللطائف: وأما إذا قوى التـوكل على الله تعالى والإيمان بقضائه وقدره، فقويت النفس على مبـاشرة بعض أسباب المهالك اعتمادا على الله ورجاء منه ألا يحصل به ضـرر، ففى هذه الحالة يجوز مباشـرة ذلك، لا سيما إذا كان فيه مصلحة عامة أو خاصة، وعلى مثل هذا يحمل ما روى عن خالد بن الوليد من أكل السم، ومشى سعد بن أبى وقاص وأبى مسـلم الخولانى بالجيوش على متن البحر. وأمر عمر بن الخطاب لتميم الدارى حيث خـرجت النار من الحرة فدخل إليها فى الغار حتى خرجت منه.

فهـذا كله صحيح لا يصلح إلا للخـواص من الناس إذا قوى إيمانهم بالله وقـضائه وقدره، وتوكلهم عليـه، وثقتهم به ونظيـر ذلك دخول المفاوز بلا زاد، فـإنه يجوز لمن قوى يقينه وتوكله خـاصة وقد نص عليه أحمـد وإسحاق وغيرهمـا من الأئمة الأربعة، وكذلك ترك التكسب والتطلب، كل ذلك يجوز عند الإمـام أحمد لمن قوى توكله، فإن التوكل أعظم الأسباب التى تستجلب بها المنافع، وتستدفع بها المضار كـما قال الفضيل بن عياض: لو علم الله منك إخـراج المخلوقين من قلبك لأعطاك كل ما تريد. وبذلك فسر الإمام أحمـد التوكل فقال: هو قطع الاستشراف باليأس من المخلـوقين. قيل: فما الحجة فيه؟ قال: قول إبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار فعرض له جبريل فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا: قال: سله. قال: حسبى من سؤالى علمه بحالى.

ولا يشرع ترك الأسباب الظاهرة إلا لمن تعوض عنها بالسبب الباطن، وهو تحقيق التوكل، فإنه أقوى من الأسباب الظاهرة لأهله، وأنفع منها. فالتوكل علم وعمل، فالعلم معرفة القلب بتوحد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين يعلمون ذلك، والعمل هو ثقة القلب بالله، وفراغه من كل ما سواه، وهذا عزيز، ويختص به خواص المؤمنين.

والأسباب نوعان: أحدهما أسباب الخير، والمشروع أن يفرح بها ويستبشر، ولا يسكن إليها، بل إلى خالقها ومسببها، وذلك هو تحقيق التوكل على الله تعالى والإيمان به كما قال تعالى في الإمداد بالملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ [قُلُوبُكُم][1] بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: ١٢٦].

والثاني أسباب الشر، فلا تضاف إلا إلى الذنوب، والمشروع اجتناب ما ظهر منها واتقاؤه بقدر ما وردت به الشريعة، مثل اتقاء المجذوم، والقدوم على موطن الطاعون. وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه، فإن ذلك من الطيرة المنهي عنها، وهي من أعمال أهل الشرك والكفر.

قوله: «عكاشة بن محصن» صحابي جليل شهد بدرًا، وانكسر سيفه واستشهد في حرب المرتدين. وقوله: «سبقك بها عكاشة». قال القاضي عياض: قيل: إن الرجل الثاني لم يكن يستحق تلك المنزلة، ولا كان بصفة أهلها، بخلاف عكاشة. وقيل: بل كان منافقا، فأجابه النبي ﷺ بكلام محتمل ولم ير ﷺ التصريح له بذلك؛ لما كان عليه ﷺ من حسن العشرة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٣].

قال البغوي: ومن يثق بالله فيما نابه، كفاه ما أهمه ﴿إن الله بالغ أمره﴾ أي منفذ أمره، أي ممض في خلقه قضاءه.

﴿قد جعل الله لكل شيء قدرًا﴾ أي جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلا ينتهي إليه، قال مسروق في هذه الآية: إن الله بالغ أمره توكل عليه العبد أو لم يتوكل، غير أن التوكل عليه يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا[2] وقال الواحدي في أسباب النزول:

(١) في المخطوطة «به قلوبكم» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٢) تفسير البغوي: (٤/ ٣٥٦، ٣٥٧).

هذه الآية نزلت فى رجل من أشجع، كان فقيرا قليل ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال: «اتق الله واصبر». فرجع إلى أصحابه فقالوا: ما أعطاك رسول الله ﷺ شيئا؟ فقال: ما أعطانى شيئا، قال لى: اتق الله واصبر. فلم يلبث إلا يسيرا حتى جاء ابن له بغنم وكان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله عنها، فأخبره خبرها، فقال له: هى لك(١).

وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣]. إذا مقتضى الإيمان يقتضى الاعتقاد بأنه لا مؤثر فى جلب النفع ودفع الضر إلا الله وحده، ومن لازم ذلك التوكل على الله.

حكاية

قال اليافعى فى روض الرياحين: حكى عن بعضهم قال: رأيت فتى فى طريق مكة يتبختر فى مشيه كأن داره فى صحن مكة. فقلت له: ما هذه المشية؟ فقال: هذه مشية الفتيان، خدام الرحمن، فقلت: وأين زادك وراحلتك؟ فنظر إلى منكرا لقولى ثم قال: يا هذا ، أرأيت عبدا ضعيفا قصد مولى كريما، ثم حمل إلى بيته طعاما وشرابا، لو فعل ذلك لأمر الخدام بطرده عن بابه، إن المولى جلت قدرته لما دعانى إلى القصد إليه رزقنى حسن التوكل عليه، ثم غاب عنى فما رأيته بعد ذلك.

---

(١) أسباب النزول للواحدى: ص (٢٩٠) ط. مؤسسة الحلبى.

المجلس السابع

فى فضل الكسب

أخرج أبو داود السجستانى والترمذى وابن ماجة فى سننهم، وقال الترمذى: حديث حسن عن أنس بن مالك قال: إن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يسأله، فقال: **«لك فى بيتك شىء؟»** قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء. فقال: **«ائتنى بهما»** فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: **«من يشترى هذين»**؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال: **«من يزيد على ذلك»**؟ مرة أو مرتين، فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال: **«اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما وائتنى به»**. ففعل، فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عودا بيده، وقال: **«اذهب فاحتطب، ولا أراك خمسة عشر يوما»**، فجعل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم. فقال: **«اشتر ببعضها طعاما، وببعضها ثوبا»**، ثم قال: **«هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى، غرم مفظع، أو لذى دم موجع»**[1].

قوله: الحلس بكسر الحاء: بساط يبسط فى البيت.

وقوله: «نلبس بعضه» أى نجعله لحافا إذا نمنا، ونبسط بعضه، نجعله فراشا، وهذا الفعل منه ﷺ تعليم للتدبير فى أمر المعيشة، وإرشاد إلى الخير والصواب فى اكتساب المال وإنفاقه على النفس والأهل، وتصرف فى مال الغير بما هو الأنفع له، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقال الخطابى فى شرح سنن أبى داود: فى هذا الحديث من الفقه جواز بيع المزايدة، وأنه ليس بمخالف لنهيه عن بيع الرجل على بيع أخيه؛ لأن ذلك إنما هو بعد وقوع العقد ووجوب الصفقة وقبل التفرق من المجلس، وهذا إنما هو فى حال المراودة

---

(١) **إسناده صحيح:** أبو داود فى الزكاة (١٦٤١) والترمذى فى البيوع (١٢١٨) بنحوه، وعزا صاحب تحفة الأشراف هذا الحديث للترمذى فى العلل الكبرى كما فى تحفة الأشراف (١/ ٢٦٤)، ورواه ابن ماجة فى التجارات (٢١٩٨).

والمساومة وقبل تمام المبايعة. وفيه إثبات الكسب والأمر به، وفيه أنه لم ير الصدقة تحل له مع القوة على الكسب[١].

والقدوم بالتخفيف والتشديد: قدوم النجار الذى يقطع به الأحطاب.

«فاحتطب»: اجمع الحطب من الأشجار المباحة فى الفلاة.

«المسألة»: الطلب من الناس. «نكتة فى وجهك». النكتة كالنقطة، أى أثر قليل يشبه الوسخ فى بياض وجهك يوم القيامة، فإن وجوه المؤمنين بيض، ووجوه الكافرين سود، فأدنى شىء يشين وجه المؤمنين.

«لذى فقدر مدقع» بضم الميم وسكون الدال وكسر القاف. قال الخطابى: هو الفقر الشديد، وأصله من الدقعاء وهو التراب، ومعناه الفقر الذى يفضى به إلى التراب، لا يكون عنده ما يتقى به التراب. والغرم بضم الغين وسكون الراء: الغرامة، والمفظع: الشنيع.

قال الخطابى: أن تلزمه الديون الفظيعة الشديدة حتى تنقطع به فتحل له الصدقة[٢].

والدم الموجع: أن يتحمل حمالة فى حقن الدماء وإصلاح ذات البين.

وتفسير الحمالة: أن يقع بين القوم تشاجر فى الدماء والأموال ويحدث بسببها العداوة والشحناء وتخاف منها الفتن العظيمة، فيتوسط الرجل فيما بينهم، ويسعى فى الصلاح، ويضمن ما لا لأصحاب الأيدى الطوال يترضاهم بذلك حتى تسكن الثائرة، وتكون بينهم الألفة، فهذا رجل صنع معروفا، وابتغى بما آتاه صلاحا، فليس من المعروف أن تكون الغرامة عليه فى ماله، ولكن يعان على أداء ما تحمله منه، ويعطى من الصدقة قدر ما تبرأ به ذمته، ويخرج عن عهدة ما ضمنه.

والحاصل: أن اكتساب الحلال من المال وإنفاقه على النفس والأهل لا ينافى التوكل على الله كما قدمنا بيانه؛ لأن التوكل محله القلب، والاكتساب إنما هو بظاهر الجوارح.

وقد أرشد النبى ﷺ فى هذا الحديث وغيره من الأحاديث إلى الاكتساب وتحصيل القوت به. وذكر الوالد رحمه الله فى شرحه على شرح الدرر قال: وعن محمد بن

(١) معالم السنن للخطابى: (٢/ ٦٥).
(٢) المرجع السابق.

سماعة، سمعت محمد بن الحسن يقول: طلب الكسب فريضة، كما أن طلب العلم فريضة.

وهذا صحيح لما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «طلب الكسب فريضة على كل مسلم»(١). وقال: «طلب الكسب بعد الصلاة المفروضة مفروض»(٢). ولأنه لا يتوصل إلى إقامة الفرض إلا به فكان فرضا؛ لأنه لا يتمكن من أداء العبادات إلا بقوة بدنه، وقوة بدنه بالقوت عادة وخلقة. قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ⑧﴾ [الأنبياء: ٨].

وتحصيل القوت إنما هو بالكسب، ولأنه يحتاج فى الطهارة إلى آلة الاستسقاء والآنية، ويحتاج فى الصلاة إلى ما يستر عورته، وكل ذلك إنما يحصل بالكسب. والرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يكتسبون، فآدم عليه السلام زرع الحنطة وحصدها وطحنها وعجنها وجنزها، ونوح عليه السلام كان نجارا، وإبراهيم عليه السلام كان بزازا، وداود عليه السلام كان يصنع الدروع، وسليمان عليه السلام كان يصنع المكاتل من الخوص، وزكريا عليه السلام كان نجارا، ونبينا عليه السلام رعى الغنم، وكانوا يأكلون من كسبهم، وكان الصديق بزازا، وعمر كان يعمل فى الأديم، وعثمان كان تاجرا، وعلى كان يكتسب، فقد صح أنه كان يؤجر نفسه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧]. قال الواحدى فى سبب نزول هذه الآية أن النبى ﷺ أمر بصدقة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر ردىء فنزلت(٣).

قال البغوى: معناه: أنفقوا من خيار ما كسبتم. وقال ابن مسعود ومجاهد: من حلال ما كسبتم بالتجارة والصناعة. وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى

---

(١) إسناده ضعيف: الطبرانى فى الأوسط (٨٦١٠) بلفظ «طلب كسب الحلال فريضة على كل مسلم» بسند ضعيف.

(٢) إسناده ضعيف: الطبرانى فى الكبير (٩٩٩٣) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٨) وقال: تفرد به عباد بن كثير الرملى وهو ضعيف، وذكره البيهقى فى الشعب (٨٧٤١) كلهم بنص «طلب الحلال فريضة بعد الفريضة».

(٣) أسباب النزول للواحدى: ص (٥٥، ٥٦).

طيب وخبيث.

﴿ومما أخرجنا لكم من الأرض﴾. قيل: هذا أمر بإخراج العشور من الثمار والحبوب.
وقال البيضاوى: من طيبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن[1].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]. قال البغوى: ﴿ذلولا﴾ سهلا لا يمتنع المشى فيها ﴿فامشوا فى مناكبها﴾.

قال ابن عباس وقتادة: فى جبالها. وقال الضحاك: فى آكامها، يعنى تلالها. وقال مجاهد: فى طرقها وفجاجها.

وقال الحسن: فى سبلها. وقال الكلبى: فى أطرافها. وقال مقاتل: فى نواحيها. وقال الفراء: فى جوانبها. والأصل فى المنكب الجانب. ﴿وكلوا من زرقه﴾ مما خلقه رزقا لكم فى الأرض ﴿وإليه النشور﴾ أى فى البعث من القبور[2].

وحاصله أن الله تعالى أمر عبده أن يتعاطى أسباب الرزق، ويتعرض لمواضع إدراره عليه بالمشى فى جهات الأرض على حسب ما يلهمه من أنواع الحركة، والرزاق هو الله تعالى وحده لا شريك له.

فالمطلوب من العبد المؤمن أن يكون التوكل على الله تعالى فى قلبه، ومعاطاة أسباب المعيشة فى جوارحه الظاهرة، فيصبح ويمسى لا يدرى ما يفعل الله تعالى به، ولا يدرى ما يرزقه من أنواع الحلال، ويمضى فيما يسره الله تعالى عليه من الأسباب، والله على كل شيء قدير.

حكاية

قال اليافعى فى روض الرياحين: حكى عن حبيب العجمى أنه كانت له زوجة سيئة الخلق، فقالت له يوما: إذا لم يفتح الله عليك فأجر نفسك. فخرج إلى الجبانة فصلى إلى العشاء، ثم أتى بيته خائفا من شرها وتوبيخها، فقالت: أين أجرتك؟ فقال لها: إن الذى استأجرنى كريم، استحييت من استعجاله. فمكث على هذا الحال أياما، فلما طال

(١) تفسير البغوى: (١/ ٢٥٣).
(٢) تفسير البغوى: (٤/ ٣٧١).

عليها الحال قالت له: اطلب أجرتك من هذا الكريم، أو أجر نفسك من غيره. فوعدها أنه يطلب الأجرة، وخرج على عادته إلى الجبانة، فلما أمسى الليل عاد إلى منزله خائفا منها، فرأى في بيته دخانا، ومائدة منصوبة، وزوجتـه مستبشرة فقالت له: قد بعث إلينا الذى استأجرك ما يبعث الكرام، وقال لرسوله: قولى لحبيب يجد فى العمل، وليعلم أنا لم نؤخر أجـرته بخلا منا ولا عدمـا، فليقر عينا، وأرته أكـياسا مملوءة دنانيـر ، فبكى حبيب وقال لزوجته: هذه الأجرة من كريم بيده ملك السموات والأرض، فلما سمعت ذلك تابت إلى الله تعالى.

المجلس الثامن

فى الظلم والظالمين

أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[١].

وأخرجا أيضا عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**». قال: ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾**﴾ [هود: ١٠٢][٢].

أما الظلم فهو التصرف فى ملك الغير، أو مجاوزة الحد فى التصرف ولو فى ملكه، وقال بعضهم: هو مجاوزة الحد والتعدى على الخلق.

قوله: «**ظلمات يوم القيامة**». قال القاضى عياض: قيل هو على ظاهره، فيكون ظلمات على صاحبه، لا يهتدى يوم القيامة سبيلا، حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم[٣]. ويحتمل أن الظلمات هنا الشدائد، وبه فسروا قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴿٦٣﴾**﴾ [الأنعام: ٦٣].

وحاصله: أن ظلم العباد والتعدى عليهم بأخذ حقوقهم أو منعهم إياها، يوجب الالتباس وشدة الغفلة فى مواطن الآخرة، فيظلم قلب الظالم وبصره، فلا يهتدى إلى مواطن النجاة والسعادة.

وقوله: «**ليملى للظالم**»، معناه يمهل ويؤخر ويطيل له فى المدة؛ حتى إذا أخذه، أى إذا بطش به، لم يفلته، أى لم يطلقه، أو لم ينفلت منه أحد، أى لم يخلصه، فإن كان كافرا خلده فى النار، أو مؤمنا فإنه يعذبه مدة طويلة بقدر خبايته.

---

(١) **متفق عليه**: البخارى فى المظالم (٢٤٤٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٩/ ٥٧).

(٢) **متفق عليه**: البخارى فى التفسير (٤٦٨٦) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٣/ ٦١).

(٣) مسلم بشرح النووى: (١٦/ ١٣٤).

والحاصل: أن الله تعالى لا يعجل استيفاء حقوق أوامره ونواهيه؛ لأنه لا يخاف القوت، فالكل فى يده وقبضته وتصرفه سبحانه، فإذا قدر على الظالم الظلم أطال له فى المدة، ليكثر ظلمه وهو يظن أن ذلك اعتناء من الله تعالى به، ثم يبطش به، وقد استحق العقاب، وأليم النكال، بشهادة الملائكة وغيرهم من العباد.

قوله: «**وكذلك**» أى ومثل ذلك الأخذ أخذ الأمم الماضية الذين أهلكهم الله تعالى بكفرهم بالله وبأنبيائهم. «**أخذ ربك**» أى بطشه واستيلاؤه على الظالمين، إذا أخذ القرى، أى أهلكها وهى ظالمة، أى والحال أنها ظالمة لنفسها ولغيرها، «**إن أخذه أليم شديد**»، وجيع غير مرجو الخلاص عنه، وهو مبالغة فى التهديد والتحذير.

وخلاصة ذلك أن العبد يفترض عليه ألا يتعرض لشىء من حقوق الله تعالى، ولا لشىء من حقوق العباد، ويكف نفسه عن ذلك قبل أن يبطش الله تعالى به ويأخذه على غفلة منه أخذ الجبار المقتدر، ولا يغتر بما يمده الله تعالى فى حال ظلمه من الأموال والأولاد والأهل والعافية فى بدنه وعقله وغير ذلك من أنواع الأمور الملائمات، فإن ذلك كله استدراج له من الله تعالى، ومكر به من حيث لا يشعر، واستهزاء وسخرية ليزداد فى إثمه وظلمه، فيكثر عذابه، ويشتد عقابه فى الآخرة، وباب التوبة مفتوح، فإذا تاب تاب الله عليه.

حكاية

قال اليافعى فى روض الرياحين: حكى أن امرأة إسرائيلية كان لها دار بجوار قصر الملك، وكانت دارها تشين القصر، وكلما رام الملك منها أن تبيع الدار أبت، فخرجت المرأة فى سفر، فأمر الملك بهدمها، فلما جاءت المرأة من السفر قالت: من هدم دارى؟ فقيل لها: الملك، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: إلهى وسيدى ومولاى، غبت أنا وأنت حاضر، وللمظلوم ناصر، ثم جلست، فخرج الملك فى موكبه، فلما نظر إليها قال: ما تنتظرين؟ قالت: أنتظر خراب قصرك. فهزأ بها وبقولها، فلما جن عليه الليل خف به وبقصره، نسأل الله السلامة فى الدنيا ويوم القيامة.

المجلس التاسع

فى الصلاة على النبى ﷺ

أخرج النسائى فى سننه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه بها عشر سيئات، ورفعه بها عشر درجات»**(١) وأخرج النسائى أيضا عن أبى طلحة الأنصارى قال: إن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى فى وجهه فقال: **«إنه جاءنى جبريل فقال: أما يرضيك يا محمد أنه لا يصلى عليك أحد من أمتك صلاة إلا صليت عليه عشرا، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا»**(٢).

قوله: «صلى علىّ» أى قال: اللهم صلى على سيدنا محمد، أو صلى الله على سيدنا محمد، أو الصلاة على سيدنا محمد، أو نحو ذلك من الصيغ المفيدة للدعاء له ﷺ بأن الله تعالى يصلى عليه، أى يرحمه برفع درجاته فى الدنيا والآخرة زيادة على درجاته المرفوعة فى الدارين، فإن الكامل يقبل الكمال، والفاضل يليق به المزيد من الإفضال.

ومعنى الصلاة كما قالوا من الله تعالى: الرحمة. قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ومن الملائكة الاستغفار. قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ** ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥] ومن المؤمنين من الجن والإنس الدعاء. قال تعالى للنبى ﷺ: ﴿**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ** ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣]. أى ادع لهم. ومن الحيوان والطير التسبيح. قال تعالى: ﴿**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١]. فالله تعالى يصلى، والملائكة يصلون، والبشر يصلون، والوحوش تصلى، بل كل شىء يصلى كما قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولكن تختلف الصلاة بحسب من أضيفت إليه كما ذكرنا، ولهذا كانت الصلاة عماد الدين.

(١، ٢) إسناد صحيح: النسائى فى السهو (٣/ ٥٠).

قوله: «**عشر صلوات**» فإن الصلاة الواحدة حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، ولا يقال إن هذا الحكم عام فى كل حسنة يفعلها المكلف، فليس فيه زيادة فضل ومزية للصلاة على النبى ﷺ، لأنا نقول: إن اعتناء الله تعالى بمقابلة الصلاة على النبى ﷺ من العبد بالصلاة منه تعالى على ذلك العبد زيادة شرف ومزية للنبى ﷺ ليست فى غيرها من الحسنات التى يضاعف الله تعالى الواحدة منها بعشر أمثالها. وأيضا فإن الله تعالى جعل الجزاء على صلاة العبد على النبى ﷺ صلاة منه تعالى على ذلك العبد مضاعفة، كما جعل جزاء ذكر العبد له تعالى ذكرا منه لذلك العبد فى قوله ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢]. وهذا كله اعتناء من الله تعالى بنبيه محمد ﷺ، خصوصا وقد أضيف إلى ذلك حط السيئات العشر عنه، ورفع الدرجات العشر له، مما لا يوجد فى جزاء كل حسنة غير حسنة الصلاة على النبى ﷺ.

قوله: «**وحط عنه بها عشر سيئات**»: ظاهر الإطلاق يشمل الكبائر والصغائر، وفضل الله تعالى واسع، لكن أجمعوا على أن الكبائر لا تسقط إلا بالتوبة أو بالحد.

قوله: «**أما يرضيك**» إشارة إلى ما فى علم جبريل من أن رضاء النبى ﷺ بكمال النفع للأمة، والنجاة فى الدنيا والآخرة، وهذا شأن الكاملين من ورثة النبيين، رضاؤهم فى نفع المخلوقين، وسعيهم فى سعادة أمة محمد أجمعين، وبهذا تفاوتت المراتب والدرجات بين المقربين. والنداء بقوله: يا محمد، لما فى اسمه الشريف من الصفات الجميلة، والخصال الحميدة، فكأنه قال: يا أيها المخصوص بأنواع الخصال الجميلة، فلا نقصان من شرفه فى ندائه باسمه كما زعم بعضهم؛ لأن اسمه (محمد) الأصل ليس من الأسماء الجامدة غير المشتقة، حتى يكون فى ندائه به مجرد إرادة حضوره، وخلو ذلك النداء من الاحترام.

وظاهر قوله: «**إلا صليت عليه عشرا**»، أن الذى يصلى هو جبريل، وفى صلاة الملائكة خصوصا جبريل ما لا يخفى من مزيد الخير والبركة. وقال السخاوى: ظاهر السياق أن هذا كلام جبريل، وأنه المصلى والمسلم، وليس كذلك، بل المصلى والمسلم هو الله تعالى، وصدور هذا الكلام من جبريل؛ لأنه رسول الله إليهم، كما يدل عليه روايات أخرى صرح فيها بلفظ أن الله يقول لك: لا يصلى عليك أحد،

إلى آخر الحديث.

والحاصل من ذلك كله أن الصلاة على النبى ﷺ من أشرف الأعمال القولية التى يتقوى بها العبد المكلف فى مسالك القربات إلى الله تعالى، وهى نور عظيم يمنحه الله تعالى لأهل العناية والتوفيق، وسعى مقبول عن المكلف فى حق غيره، ولا أشرف من هذا الغير الذى جعله الله تعالى سببا للنجاة من مهالك الدنيا والآخرة، وهى دعاء له فى ظهر الغيب، وذلك مقبول على أى حال، فمن أراد أن تكون جميع أعماله مقبولة، وسائر أحواله مرضية عند الله، فليكثر من الصلاة على النبى ﷺ بأى صيغة تيسرت له، فإنه بذلك يحصل له المراد فى الدارين، ويكون ممن أوتى أجره مرتين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦] . قال الواحدى فى أسباب النزول: قيل للنبى ﷺ: قد عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة؟ فنزلت هذه الآية[1].

قوله: ﴿يصلون على النبى﴾ قال ابن عباس: أراد أن الله يرحم النبى، والملائكة يدعون له. وعن ابن عباس أيضا ﴿يصلون﴾ أى يبركون، أى يدعون بالبركة، وقوله: ﴿صلوا عليه﴾ أى ادعوا له بالرحمة، ﴿وسلموا تسليما﴾ أى حيوه بتحية الإسلام.

وعن أبى عثمان الواعظ قال: سمعت سهل بن محمد يقول: هذا التشريف الذى شرف الله به محمدا ﷺ بقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ أتم وأجمع من شرف آدم بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة فى هذا السجود، فتشريف يصدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة. وقال أبو الليث السمرقندى: إذا أردت أن تعرف أن الصلاة على النبى ﷺ أفضل من سائر العبادات فانظر فى هذه الآية فأمر الله عباده بسائر العبادات، وصلى عليه بنفسه أولا، وأمر الملائكة بالصلاة عليه، ثم أمر المؤمنين بالصلاة عليه.

ومعنى السلام: السلامة من النقائص والآفات فى الدنيا والآخرة. ومعنى ﴿سلموا تسليما﴾ ادعوا له ﷺ بالسلامة من ذلك، وبالحفظ والرعاية على كل حال. وإنما أكد السلام بالمصدر دون الصلاة؛ لأن الإخبار بأن الله وملائكته يصلون على النبى ﷺ

(١) أسباب النزول للواحدى: ص (٢٤٣).

أغنى عنه، لدلالته على أنه من الشرف بمكان، ولأن الصلاة مؤكدة بإن، واسمية الجملة فلا حاجة إلى تأكيدها بالمصدر، ولأنه لما وقع تقديم الصلاة على السلام فى اللفظ، وكان للتقديم مزية فى الاهتمام، حسن تأكيد السلام لتأخر مرتبته فى الذكر، لئلا يتوهم قلة الاهتمام به لتأخره، قاله السخاوى.

وقال البيضاوى: والآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه فى الجملة. وقيل: تجب الصلاة كلما جرى ذكره(١).

ويجوز الصلاة على غير تبعا، وتكره استقلالا؛ لأنه فى العرف صار شعار الذكر الرسل، ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا وجليلا. وقال الوالد رحمه الله: وابتداء الأمر بالصلاة على النبى ﷺ كان فى السنة الثانية من الهجرة، وقيل: فى ليلة الإسراء. ذكره السخاوى.

وقال أبو الحسن الكرخى بافتراضها فى العمر مرة، وفى المحيط نقلا عن الطحاوى أنها تجب على المكلف كلما ذكر النبى ﷺ، وهذا هو الأصح.

وفى المجتبى: والصحيح أنه يتكرر الوجوب وإن كثر. وقال شمس الأئمة السرخسى: ما ذكره الطحاوى مخالف للإجماع، فعامة العلماء على أن الصلاة على النبى ﷺ كلما ذكر مستحبة وليست بواجبة. وفى شرح ابن ملك أن الفتوى على قول السرخسى.

حكاية

ذكر الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة التلمسانى فى كتابه دفع النقمة فى الصلاة على نبى الرحمة، أن خطيب بيرود أخبره وكان ذلك فى زمان الطاعون أن رجلا من الصالحين قال له: إن كثرة الصلاة على النبى ﷺ تدفع الطاعون، قال: وقد تلقيت ذلك بالقبول، فكنت أقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تعصمنا بها من الأهوال والآفات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، فحصل لى النجاة ببركة ذلك.

وذكر العلامة مجد الدين الفيروزبادى فى كتابه الصلات والبُشر فى الصلاة على خير البشر، عن الحسن بن الأسوانى أنه قال: من قالها، يعنى الصلاة على النبى ﷺ فى كل

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٥٦٢).

مهم ونازلة وبلية ألف مرة فرج الله عنه، وأدرك مأموله.

ويحكى عن أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه كان فى بعض سياحاته فآواه الليل إلى مغارة فى جبـل، فبينما هو فيها بالـليل إذا بسبع عظيم وقف عند باب المغارة وزأر بصوت شـديد فارتجت منه المغـارة، فورد فى خـاطره قوله ﷺ: **«من صلى علىّ صـلاة صلى الله عليه بها عشرا»**. وقال فى نفسه: الصـلاة من الله الرحمة، وأنا الآن من أحوج الناس إلى الرحمة، فـأخذ فى الصلاة على النبى ﷺ حتى فر السـبع هاربا ونجا الشيخ أبو الحسن.

المجلس العاشر

فى فضل الحب فى الله

أخرج مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «**أن رجلا زار أخا له فى قرية أخرى، فأرصد الله على مدرجته ملكا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لى فى هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا غير أنى أحببته فى الله. قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**»(١).

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عاد مريضا أو زار أخا له فى الله ناداه مناد: أن طبت وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا**»(٢).

وأخرج الترمذى عن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ قال: «**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة**»(٣).

قوله فى الحديث الأول: «**فأرصد الله على مدرجته ملكا**». يعنى أقعده ليرقبه، والمدرجة الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها، أى يمضون ويمشون.

وقوله: «**هل لك عليه من نعمة تربها**» بضم التاء وفتح الراء وتشديد الباء وكسرها، أى تحفظها وترعاها وتربيها كما يربى الرجل ولده. قال الإمام النووى: وفى هذا الحديث فضيلة زيارة الصالحين والأصحاب(٤).

وقوله فى الحديث الثانى: «**من عاد مريضا**» أى زاره، سواء كان من أقاربه أو من الأجانب.

---

(١) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٧/ ٣٨).

(٢) إسناده ضعيف: الترمذى فى البر والصلة (٢٠٠٨) قلت: فى سنده عيسى بن سنان لين الحديث كما فى التقريب.

(٣) إسناده صحيح: الترمذى فى الجنائز (١٠٥٤) وقال: حسن صحيح وهو كما قال.

(٤) مسلم بشرح النووى (٧/ ٤٥).

وقوله: «فى الله» أى فى دين الله، بأن كان مسلما. ولعل المنادى الذى يناديه ملك من الملائكة وإن لم يسمعه. وقوله: «طبت». أى حسنت حالتك عند الله، وأعد الله لك عليها الثواب الجزيل.

وقوله: «وطاب ممشاك»: أى الطريق الذى مشيت فيه إلى زيارة أخيك.

وقوله: «وتبوأت» أى اتخذت، يعنى بوأك الله وأعد لك يوم القيامة من الجنة منزلا، فى مقابلة مشيك لزيارة أخيك بصدق محبتك له دون غرض دنيوى أو علة نفسانية.

وقوله فى الحديث الثالث: «قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور» فيه أنه تقدم منه ﷺ نهى للرجال عن زيارة القبور، ولعل سبب ذلك النهى وحكمته حتى لا تجبن نفوسهم بتذكر الموت، فإن المقبرة سميت الجبانة لذلك، والحاجة فى صدر الإسلام داعية إلى شجاعتهم وجرأتهم فى حرب المشركين لنصرة هذا الدين. ثم لما انتصرت كلمة الحق نسخ الله ذلك النهى على لسان نبيه ﷺ، فاستحب لهم زيارتها، لأنها تذكرهم بالآخرة والموت، وتزهدهم فى الدنيا، فقد أذن لمحمد. أى أذن الله لمحمد، وذكر اسمه ولم يقل: أذن لى، إشارة إلى أنه ﷺ من جملة الأمة، مأمور بأمر الله، ومنهى بنهى الله.

قوله: «فى زيارة قبر أمه» آمنة بنت وهب، وكانت من أهل الفترة التى بين عيسى ونبينا ﷺ، وأهل الفترة غير معذبين، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ⑮﴾ [الإسراء: ١٥].

والحاصل من معانى هذه الأحاديث أن الزيارة فى الشرع أمر مطلوب، وشأن مرغوب، ينبغى المحافظة عليها بين المؤمنين من بعضهم لبعض، فيزور الحى الحى، ويزور الحى الميت، خصوصا فى الموتى من الأنبياء والصحابة والأولياء والصالحين والأهل والأقارب من الرجال والنساء، فإن فى ذلك برا وصلة بين الإخوان، ومزيد أجر وثواب من الله تعالى، فيحصل للزائر بالزيارة كمال الانشراح، واستفادة المودة من المزور، وحصول الفرح والسرور بلقاء أخيه المسلم، ويحصل للمزور أيضا بالزيارة كمال الملاطفة ودخول الفرح عليه بموارده أخيه المسلم له.

وقد ورد فى الأحاديث أن الميت يشعر بزائره، فإذا سلم عليه رد عليه السلام وفرح به[1]، فإذا قرأ الفاتحة ودعا له فإنه ينتفع بذلك، ويصل إليه ثوابه من الله تعالى،

(١) إسناده ضعيف: ابن عساكر (٧/ ٢٩٢) بسند ضعيف.

ويحصل لكل من الزائر والمزور النفع التام، والحظ الوافر، ففي زيارة المؤمنين بعضهم لبعض تعاون على البر والتقوى، وهو مأمور به من قبل العالم بالسر والنجوى.

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

قال البغوى: ﴿وتعاونوا﴾ أى ليعن بعضكم بعضا، ﴿على البر والتقوى﴾ قيل: البر متابعة الأمر. والتقوى: مجابنة النهى. وقيل: البر الإسلام. والتقوى: السنة. و﴿الإثم﴾: الكفر. ﴿العدوان﴾: الظلم. وقيل: الإثم: المعصية. والعدوان: البدعة[1].

وحاصل ذلك أن معاونة المسلمين بعضهم لبعض فيما يقتضى الأجر والثواب من الله تعالى لهم أمر مهم، فيه بقاء النوع الإنسانى ودوام النصرة لدين الإسلام، خصوصا من الأقوياء للضعفاء، ومن الأحياء للموتى، بدوام الصدقات عنهم، وإهداء المعروف إليهم، وصلة أرحامهم، فإن الخلق فى كل زمان يعيشون فى بركات أسلافهم، فينبغى المحافظة على دوام الإمداد والاستمداد، خصوصا بزيارة الصالحين الأحياء والأموات، فإن الإمداد الإلهى لا ينقطع عن الأرواح الفاضلة المتصفة بالحياة الدنيوية أو البرزخية، والله الممد فيها لمن يشاء بما يشاء والله على كل شىء قدير.

حكاية

قال الشيخ محمد بن عراق فى كتابه: السفينة العراقية، عن الفقيه الأجل محمد بن الحسن الجبلى، أنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام. قال: فقلت: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: وقوفك بين يدى ولى من أولياء الله كحلب شاة، أو شوى بيضة، خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربا. فقلت له: يا سيدى، حيا كان أو ميتا؟ قال: حيا كان أو ميتا. ومعنى وقوفك بين يدى الولى الحى: انقيادك لتصرفه فيك على وفق الأحكام الشرعية بما لا يحصل لك إذا كنت فى طوع فسك الأمارة بالسوء. وأما بين يدى الولى الميت فإن الله تعالى يتصرف فيك بمقتضى أحكامه الشرعية ببركة ذلك الولى بما لا يكون لك من قبل نفسك، والله ولى التوفيق، والهادى إلى سواء الطريق.

(١) تفسير البغوى: (٢/ ٨).

المجلس الحادى عشر

فى الهدية بين المسلمين

أخرج الإمام أحمد بإسناد جيد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله شيئا من هذا المال من غير أن يسأله فليقبله، فإنما هو رزق ساقه الله إليك»(١).

وأخرج البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدى إلىّ ذراع أو كراع لقبلت»(٢).

وأخرج أبو يعلى فى مسنده بإسناد جيد أن النبى ﷺ قال: «تهادوا تحابوا»(٣).

قوله: «من آتاه الله» أى على يد أحد من الناس مطلقا، مؤمنا كان أو كافرا، فإن النبى ﷺ كان يقبل هدايا المشركين، فقد أهدى إليه المقوقس ملك الإسكندرية جارية قبطية اسمها مارية، فتسرى بها ﷺ، وولد له منها ابنه إبراهيم، وأهدى له أيضا بغلة كان يركبها بالمدينة، وأهدى الأكيدر صاحب دومة الجندل إلى رسول الله ﷺ جرة من مَنٍّ، فجعل رسول الله ﷺ يعطى أصحابه منها قطعة قطعة.

وقوله: «فليقبله». أخذ بهذا الأمر بعضهم، فأوجب القبول، وحمله آخرون على الاستحباب والندب، وهو الصحيح المشهور، وهذا كله إذا لم يتحقق أن هذا الشىء المهدى إليه حرام بعينه، لا أن يظن أو يشك.

قوله: «إلىّ ذراع أو كراع» الذراع ذراع الشاه ونحوها من الحيوان المأكول. والكراع: مستدق الساعد من الغنم والبقر. وقد يراد بالذراع اليد، وبالكراع الرجل. والمعنى أنه إذا دعانى أحد أى أضافنى، وكانت الضيافة ذراعا أو كراعا «لأجبته» أى مشيت معه ولم استنكف عنها لقلّتها.

---

(١) إسناد صحيح: أحمد (٢/ ٢٩٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر على المسند (٧٩٠٨).

(٢) البخارى فى الهبة (٢٥٦٨).

(٣) إسناد حسن: أبو يعلى (٦١٤٨) قلت: فى سنده ضمام بن إسماعيل مختلف فيه.

وقوله: «**ولو أهدى إليّ**» أي لو أهدى إليّ أحد من الناس ذلك لقبلته ولم أحتقره لقلته.

وفي الحديث إشارة إلى ندب الهدية واستحبابها للمسلمين فيما بينهم وإن كانت قليلة كالتمرة الواحدة. وقال ابن بطال في شرحه على البخاري: أشار عليه السلام إلى الحث على قبول الهدية وإن قلت، لئلا يمتنع المهدى من الهدية لاحتقار الشيء، فحث على ذلك لما فيه من التآلف[١].

وقوله «**تهادوا**» أي فيما بينكم. «**تحابوا**» فإن هديتكم توجب المحبة بعضكم لبعض. قال المناوي: ندب دوام المهاداة لتزايد المحبة بين المؤمنين، فإن الشيء متى لم يزد فله النقصان على مر الزمان، وقال الشعراني: كان التابعون يرسلون الهدية لأخيهم ويقولون: نعلم غناك عن مثل هذا، ولكن أرسلنا لك لتعلم أنك منا على بال[٢].
قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢)**﴾ [البقرة: ١٧٢].

والحاصل أن الله تعالى جعل الهدية موجبة لكمال المودة بين الناس؛ لأنها تشبه الرضاع، فتوقع النسبة المعنوية بين الإخوان. وينبغي قبولها وإن كانت قليلة، جبرا لخواطر المسلمين بعضهم لبعض. وينبغي المكافأة عليها ولو بالدعاء وحسن الثناء، وقضاء الحوائج، وهي رزق ساقه الله تعالى على يد من شاء من عباده، فينبغي الفرح به، وتلقيه من الله تعالى بالقبول التام.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)**﴾ [يونس: ٥٨]. يعني من حطام الدنيا، فإنها إلى الزوال.

حكاية

ذكر اليافعي في روض الرياحين أن بعض الفقراء قال: دخلت على أبي الخير، فناولني تفاحتين فجعلتهما في جيبي، فقلت: لا أتناولهما لكن أتبرك بهما لموضع الشيخ

(١) فتح الباري بشرح البخاري: (٥/ ٢٣٦).
(٢) فيض القدير للمناوي: (٣/ ٢٧١).

عندي، فكانت تجرى على فاقات ولا أتناولهما، حتى أجهدتنى الفاقة مرة فأخرجت واحدة فأكلتها، ثم أدخلت يدى لأخرج الأخرى، وإذا بالتفاحتين مكانهما، فمازلت آكل منهما حتى دخلت الموصل، فجزت على خرابة، فإذا بعليل ينادى من الخرابة: أشتهى تفاحة، ولم يكن وقت التفاح، فأخرجت التفاحتين وناولتهما إياه، فأكلهما وخرجت روحه، فعلمت أن الشيخ إنما أعطانيهما من أجل ذلك العليل.

المجلس الثانى عشر

فى صلة الأرحام

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له فى رزقه، وينسأ له فى أثره، فليصل رحمه»[1].

وأخرجا أيضا عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فهو لك». قال رسول الله ﷺ: «فاقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢]»[2].

قوله: «ينسأ له فى أثره» ينسأ بضم الياء وسكون النون وفتح السين أى يؤخر، والأثر الأجل؛ لأنه تابع للحياة وفى أثرها. وبسط الرزق وتوسعته وكثرته. وقيل: البركة فيه. وأما التأخير فى الأجل ففيه سؤال مشهور وهو أن الأرزاق والآجال مقدرة لا تزيد ولا تنقص، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وقد أجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها: أن هذه الزيادة بالبركة فى عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه فى الآخرة، وصيانتها عن الضياع فى غير ذلك. والثانى: أنه بالنسبة لما يظهر للملائكة وفى اللوح المحفوظ ونحو ذلك، فيظهر لهم أو فى اللوح المحفوظ أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد أربعين، وقد علم الله تعالى ما سيقع من ذلك. وهو معنى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] فبالنسبة إلى علم الله وما سبقت به قدرة الله لا زيادة، بل هى مستحيلة. وبالنسبة لما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد

(١) متفق عليه: البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٧/ ٢١).
(٢) متفق عليه: البخارى فى التفسير (٤٨٣٠) مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٥٤/ ١٦).

الحديث، ذكره النووى فى شرح مسلم[١].

قوله: «**فليصل رحمه**» قال العلماء: حقيقة الصلة العطف والرحمة. فصلة الله تعالى عباده لطفه ورحمته وعطفه بإحسانه ونعمه، أوصلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم بمعرفته وطاعته.

قال القاضى عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة فى الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة.

والأحاديث فى الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام أو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعا، ولو قصر عما يقدر عليه، وينبغى له، ولم يسم واصلا.

واختلفوا فى الرحم التى يجب وصلها. فقيل: كل رحم محرم، بحيث لو كان أحدهما ذكرا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام وأولاد الأخوال. وقيل هو عام فى كل رحم من ذوى الأرحام فى الميراث، يستوى فيه المحرم وغيره، وهذا القول هو الصواب[٢].

قوله: «**قالت الرحم**» لا شك أن الرحم التى توصل وتقطع إنما هى معنى من المعانى، وهى القرابة والنسب، والله تعالى قادر على أن ينطق المعانى بالكلام كما ينطق الأجسام. قال تعالى: ﴿ **الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت: ٢١]. والعائذ: المستعيذ، وهو المعتصم بالشىء، الملتجئ إليه، المستجير به.

قوله: «**فهو لك**». الضمير راجع إلى ما ذكر من وصل من وصلك وقطع من قطعك.

والحاصل أن الله تعالى اعتبر القرابة والنسب فيما بين بنى آدم، فأوجب لأجلها عليهم زيادة المودة والتقرب وكمال الاعتناء والاعتبار، حتى يبقى طرفا الأسباب الموضوعة فى المخلوقات ثابتا معتبرا غير مهمل؛ لأن غالب الأحكام الشرعية مبنية على

(١، ٢) مسلم بشرح النووى (١٦/ ١١٣، ١١٤).

ذلك، كالنفقات والمواريث وغير ذلك، فوجبت صلة الرحم لبقاء الأحكام الشرعية فى الأرض، ودوام الامتثال والطاعة لله تعالى كما أن أملاك بنى آدم معتبرة شرعا، وغالب الأحكام الشرعية تبنى عليها، فلابد من اعتبارها، وهى معنى من المعانى كالقرابة والنسب، وإن كان الكل مخلوقا بقدرة الله تعالى وحدها، ولا تأثير لكل ما عداه سبحانه فى شيء أصلا، وكان الملك لله وحده لا لأحد غيره أصلا، ولكنه سبحانه وتعالى ثبت فى نوع الإنسان هذين الأمرين المعنويين الاعتباريين، وهما: الرحم والملك، وخص بهما بنى آدم دون غيرهم من مخلوقاته بيانا لوجه الفضيلة والشرف على سائر المخلوقات. ولهذا قال ﷺ فى أول الحديث: «**إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ قالت الرحم**» فإن الأمور الاعتبارية لا تتحقق إلا بعد تمام الأمر الحقيقى، والفراغ منه.

قوله «**فاقرأوا إن شئتم**» يعنى فى الاستدلال على ما ذكر من وجوب صلة الرحم وحرمة قطعها ﴿**فهل عسيتم**﴾. أى فهل يتوقع منكم.. ﴿**إن توليتم**﴾ أمور الناس وتأمرتم عليهم، أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام. قاله البيضاوى(١).

وقال البغوى: ﴿**فهل عسيتم إن توليتم**﴾، أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامه. ﴿**أن تفسدوا فى الأرض**﴾ تعودوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من البغى والمعصية وسفك الدم، وترجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالإسلام ﴿**وتقطعوا أرحامكم**﴾. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن. وقال بعضهم: هو فى الولاية، أى إن وليتم أمر الناس أن تفسدوا فى الأرض بالظلم، نزلت فى بنى أمية وبنى هاشم(٢).

قال الله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ①﴾ [النساء: ١]. تساءلون به، أى يساءل بعضكم بعضا، فيقول: أسألك بالله. ﴿**والأرحام**﴾ بالنصب عطف على الله، أى اتقوا الله واتقوا الأرحام فصلوها ولا تقطعوها، وبالجر عطف على الضمير المجرور فى ﴿**به**﴾. وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه الكريم على أن صلتها بمكان منه ﴿**إن الله كان عليكم رقيبا**﴾ حافظا ومطلعا.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ص (٦٧٤).
(٢) تفسير البغوى: (٤/ ١٨٣، ١٨٤).

حكاية

حكى أبو الليث السمرقندى فى كتابه تنبيـه الغافلين عن يحيى بن سليمان قال: كان عندنا بمكة رجل من أهل خـراسان، وكـان رجلا صالحـا، وكان الناس يودعـونه ودائع لهم، فجاء رجل فأودعة عشرة آلاف دينار، وخرج الرجل فى حاجته، ثم قدم مكة وقد مات الخراسانى فسأل أهله وولده عن مـاله، فلم يكن لهم به علم، فقال الرجل لفقهاء مكة: إنى أودعْت فلانا عشرة آلاف دينار وقد مات، وليس عند أهله وأولاده علم، فما تأمروننى؟ فقالوا: نحن نرجو أن يكون الخـراسانى من أهل الجنة، فإذا مضى من الليل نصفه فائت زمزم، وناد: يا فلان ابن فلان، أنا صاحب الوديعة. ففعل ذلك ثلاث ليال فلم يجبه، فأتاهم فأخبرهم، فقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، نحن نخشى أن يكون من أصحاب النار، فأت اليـمن، فإن بها واديا يقال له برهوت، وفيه بئـر تجتمع إليه أرواح الأشقياء، فإذا مضى من الليل نصفه فناد: يا فلان أنا صاحب الوديعة، ففعل فأجابه فى أول صوت فـقال: ويحك، ما أنزلك هنا وقـد كنت صاحب خير؟ قـال: كان لى أهل بيت فى خراسـان فقطعـتهم حتى مت، فـأخذنى الله بذلك، فأنزلـنى هذا المنزل، وأما مالك فهو على حـاله، وضعته تحت الأرض فى المكان الفلانى، فـاذهب فخذه، فانظر كيف وقع به الشقاء بسبب شؤم قطيعة الرحم.

المجلس الثالث عشر

فى تحريم الزنا واللواط

أخرج الشيخان عن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ فى رهط، فقال: «أنا أبايعكم على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصونى فى معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به فى الدنيا فهو كفارة له وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»(١).

وأخرج الشيخان أيضا عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»(٢).

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من عمل بعمل قوم لوط»(٣).

وأخرج الترمذى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط»(٤).

قوله: «بايعت» عاهدت «فى رهط» فى جماعة «لا تقتلوا أولادكم» أراد بذلك وأد البنات، يعنى دفنهن أحياء. «ولا تأتوا ببهتان» هو القذف بالباطل وافتراء الكذب «تفترونه بين أيديكم وأرجلكم» أراد دعوى الابن على طريقة الكذب، بأن يدعى الرجل أن هذا المولود ولده وهو يعلم كذبه. وأصله فى النساء أن تلتقط المرأة مولودا وتقول لزوجها:

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الإيمان (١٨) ومسلم فى الحدود (١٧٠٩/ ٤١).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الأشربة (٥٥٧٨) ومسلم فى الإيمان (٥٧/ ١٠٠).

(٣) إسناد صحيح: أحمد (١/ ٢١٧، ٣١٧) وصححه الشيخ شاكر على المسند (١٨٧٥، ٢٩١٦).

(٤) إسناده ضعيف: الترمذى فى الحدود (١٤٥٧) قلت: فى سنده: عبد الله بن محمد بن عقيل فى حديثه لين كما فى التقريب.

هذا ولدى منك، والبهتان المفترى بين الأيدى والأرجل؛ لأن الولد إذا ولدته الأم سقط بين يديها ورجليها، فكما يحرم على المرأة أن تدعى مولودا أنها ولدته يحرم على الرجل أن يدعى مولودا أنه ولد منه وهو أبوه.

والمعروف: كلام وافق طاعة الله تعالى. واعلم أن هذا الحديث عام مخصوص، وموضع التخصيص قوله ﷺ: «**ومن أصاب من ذلك شيئا فأخذ به**». والمراد ما سوى الشرك، وإلا فالشرك لا يغفر، ولا تكون المؤاخذة والعقوبة عليه كفارة له.

قوله: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن**» اختلف العلماء فى معناه، والقول الصحيح الذى قاله المحققون: أن معناه لا يفعل هذه المعاصى وهو كامل الإيمان. وهذا من الألفاظ التى تطلق على نفى الشىء والمراد نفى كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على هذا للحديث الآخر: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق**»[1] وهذا التأويل المذكور ظاهر شائع فى اللغة، مستعمل فيها كثيرا وقد حصل به الجمع بين هذين الحديثين المتناقضين فى الظاهر. وتأول بعض العلماء هذا الحديث على من فعل ذلك مستحلا مع علمه بورود الشرع بتحريمه.

وحكى عن ابن عباس أن معناه ينزع منه نور الإيمان لا نفى الإيمان. وقيل: تنزع عنه بصيرته فى طاعة الله. وذهب الزهرى إلى أن هذا الحديث وما أشبهه نؤمن به ونبقيه على ما جاء، ولا نخوض فى معناه كما مشى على ذلك السلف الأولون.

قوله: «**ملعون من عمل بعمل قوم لوط**» المراد إتيان الذكور فى أدبارهم، وكذلك الإناث ولو نساؤهم أو ما ملكت أيمانهم. واللواط أشنع فعلة بعد الكفر بالله تعالى، وهو من أكبر الكبائر، وحد فاعله عند إمامنا الأعظم أبى حنيفة أن ينظر إلى أعلى شاهق فى البلد فيلقى منه منكسا، ثم يتبع بالحجارة وعند مالك وأحمد يرجم اللوطى أحصن أو لم يحصن، وعند الشافعى حد الفاعل كحد الزنا، وحد المفعول به الجلد.

وقوله: «**أخوف ما أخاف على أمتى**» أى أكثر خوفا من كل شىء أخاف عليهم منه. «**عمل قوم لوط**»، وذلك هو اللواطة بالذكور والإناث كما ذكرنا، فإذا كان خوفه ﷺ

(١) متفق عليه: البخارى فى اللباس (٥٨٢٧) ومسلم فى الإيمان (٩٤/ ١٥٤).

على أمته لسبب ذلك أكثر من خوفه عليهم بسبب غير ذلك من بقية المعاصى، لا جرم كان ذلك من أبلغ المعاصى وأعظمها حرمة، وأشدها قبحا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء: ٣٢]. ﴿كان﴾ ثبت وتحقق ﴿فاحشة﴾: ذنب عظيم. ﴿ساء﴾ قبح ﴿سبيلا﴾ طريقا يسلك الإنسان فيه، أى يعمل به.

وقال الله تعالى ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١)﴾

[الأعراف: ٨٠، ٨١].

قوله: ﴿ولوطا﴾ أى وأرسلنا لوطا، وهو لوط بن هاران بن آزر ابن أخى إبراهيم ﴿إذ قال لقومه﴾ هم أهل سدوم. فقال لهم: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ يعنى إيتان الذكران ﴿ما سبقكم بها من أحد﴾ قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر فى الدنيا حتى كان قوم لوط. ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ فى أدبارهم ﴿شهوة من دون النساء﴾ يعنى أدبار الرجال عندكم أشهى من فروج النساء.

حكايات

قال اليافعى فى روض الرياحين عن بعض الصالحين قال: بينما أنا أطوف بالكعبة إذا بجارية على عنقها طفل وهى تنادى: يا كريم، عهدك القديم. قال: فقلت لها: ما هذا العهد؟ قالت: ركبت فى سفينة، فغرقت السفينة ومن فيها من الناس، ولم ينج أحد غيرى وهذا الطفل فى حجرى على لوح، ونجا رجل أسود على لوح آخر فنظر الأسود إلى حتى استوى معنا على اللوح، وجعل يراودنى عن نفسى، فقلت: يا عبد الله، أما تخاف الله عز وجل ونحن فى هذه البلية؟ فقال: لابد من هذا الأمر، وكان هذا الطفل نائما فى حجرى، فمد الأسود يده إلى الطفل ورمى به فى البحر، فدعوت الله تعالى وقلت: يا من يحول بين المرء وقلبه حل بينى وبين هذا الأسود بحولك وقوتك فوالله ما استوعبت الكلمات حتى ظهرت دابة من دواب البحر ففتحت فاها والتقمت الأسود، وغاصت به فى البحر، ومازالت الأمواج تدفعنى حتى رمتنى إلى جزيرة، فقلت فى

نفسى: آكل من بقلها، وأشرب من مائها، حتى يفرج الله، فمكثت أربعة أيام، فأتت علىّ سفينة فخرجت فيها، وركبت معهم، فإذا بهذا الطفل الذى رمى به الأسود عند رجل منهم، فلم أتمالك أن قبلت بين عينيه وقلت: والله هذا ولدى، وخبرى هو كذا وكذا، فلما سمعوا ذلك منى أطرقوا رءوسهم، وقالوا: نحن أيضا نخبرك بأمر تعجبين منه. بينما نحن فى السفينة إذا بدابة قد اعترضت ووقفت أمامنا، وهذا الطفل على ظهرها، وإذا مناد ينادى: إن لم تأخذوا هذا الطفل هلكتم، فصعد واحد منا وأخذ الطفل، وغاصت الدابة فى البحر، وقد عاهدت الله تعالى ألا يرانى على معصيته بعد ذلك اليوم، فهذا العهد الذى بينى وبينه.

ونقل أيضا فى الكتاب المذكور: كان شاب فى بنى إسرائيل أحسن أهل زمانه، وكان يبيع القفاف، فبينما هو ذات يوم يطوف بقفافة، إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بنى إسرائيل فلما رأته رجعت مبادرة لابنة الملك فقالت: إنى رأيت شابا بالباب يبيع القفاف، لم أر شابا أحسن قط منه. فقالت لها: أدخليه. فخرجت إليه وقالت: يا فتى، ادخل نشترى منك. فدخل، فأغلقت عليه ثلاثة أبواب، حتى استقبل ابنة الملك كاشفة عن وجهها ونحرها فقال: اشتروا حاجتكم. فقالت: إنا لم ندعوك لهذا، وإنما دعوناك لكذا وكذا تراوده عن نفسه، فقال لها: اتقى الله. قالت: إن لم تطاوعنى على ما أريد أخبرت الملك أنك إنما دخلت علىّ تراودنى عن نفسى، فوعظها فأبت، فقال: ضعوا لى ماء لأتوضأ، فقالت: أعلى تتعلل، فوضعوا له ماء فوق مكان عال من فوقه إلى الأرض أربعين ذراعا، فلما صار فى المكان العالى قال اللهم: إنى دعيت إلى معصيتك، وإنى أختار أن أرمى بنفسى من هذا المكان ولا أرتكب المعصية ثم قال: بسم الله، وألقى بنفسه، فأهبط الله إليه ملكا من الملائكة، فأخذ بضبعيه فوقع قائما على رجليه، فلما صار إلى الأرض قال: اللهم إن شئت رزقتنى ما يغنينى عن بيع القفاف، فأرسل الله إليه جرادا من ذهب، فأخذ منه حتى ملأ ثوبه، فلما صار فى ثوبه قال: اللهم إن كان هذا رزقا رزقتنيه فى الدنيا فبارك لى فيه، وإن كان ينقصنى فمالى فى الآخرة عندك فلا حاجة لى به، فنودى: إن هذا المال من بعض مالك فى الآخرة عندنا من أجر إلقاء نفسك من هذا المكان، فقال: اللهم لا حاجة لى فيما ينقصنى فمالى فى الآخرة، فرفع ذلك عنه.

وذكر المناوى فى الطبقات فى ترجمة الشيخ على بن الصباغ القوصى وكان من أولياء الله تعالى أن رجلا أراد أن يلوط بأمـر عند قبره، فناداه الشيخ من القبر: أمـا تستحى؟ فأغمى عليـه، وهذه كرامة عظيمة صـدرت لهذا الولى بعد موته، أكرمـه الله تعالى بها كما كان يكرمه فى حال حياته.

المجلس الرابع عشر

فى الصبر على البلاء

أخرج الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال: إن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فلم يسأله أحد منهم إلا أعطاه حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيديه: «**ما يكن عندى من خير لا أدخره عنكم، وإن من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء خيرا وأوسع من الصبر**»(١).

وأخرج البيهقى فى سننه بإسناد صحيح عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «**الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله**»(٢).

قوله: «**سألوا رسول الله**». طلبوا منه أن يعطيهم شيئا من مال الله تعالى الذى فى يده. «حتى نفد ما عنده»: فرغ ما كان فى يده يومئذ من المال.

«**وإن من يستعف**»: يطلب العفة ويكلف نفسه الاتصاف بها. «**يعفه الله**»: يجعل العفة خلقا له وطبيعة يجدها فى نفسه من غير تكلف.

«**ومن يتصبر**»: يكلف نفسه الصبر ويحملها عليه وعلى التزامه، ويتجرع مرارة البلاء والمصائب.

«يصبره الله» يجعل الله تعالى الصبر خلقا له، فلا يكاد ينفك عنه، فإن الأخلاق الفاضلة فى الكامل إنما حصلت بالتخلق، كما أن العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ونحو ذلك، فإذا حصل العبد على صفة الصبر وصار من أخلاقه، فقد حصل على نصف الإيمان كما يشير إليه الحديث الثانى.

وذلك لأن الإيمان هو التصديق بالله تعالى، وبجميع ما يرد عنه سبحانه، والوارد عنه قسمان: قسم تحبه النفوس، وقسم تكرهه النفوس. فالصبر على ما تكرهه النفوس

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الزكاة (١٤٦٩) ومسلم ى الزكاة (١٠٥٣/ ١٢٤).

(٢) إسناده صحيح: البيهقى فى شعب الإيمان مرفوعا (٩٧١٦) ورواه موقوفا فى الشعب الإيمان (٤٨، ٩٧١٧) بسند صحيح..

نصف الإيمان. وأما اليقين وهو طمأنينة القلب وسكونه واعتماده عى الحق تعالى فى جميع ما صدر عنه سبحانه، والاستسلام والانقياد إليه بالظاهر والباطن فيما يحب ويكره، ولا شك أن هذا هو الإيمان كله، فإنه تصديق وزيادة، لاشتماله على كمال الانقياد لما صدقه.

وبالجملة فإن الصبر قوام الدين، وعليه مدار الشريعة كلها فى الأوامر والنواهى، إذ لا طاعة إلا وهى محتاجة إلى الصبر حتى تتم على أكمل الوجوه، ولا معصية إلا وهى محتاجة إلى الصبر حتى تجتنب على أتم الأحوال، فمن رزق الصبر فقد رزق الخير الكثير العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠]. قال البيضاوى ﴿إنما يوفى الصابرون﴾ على مشاق الطاعة واحتمال البلاء، ومهاجرة الأوطان، ﴿أجرهم بغير حساب﴾ أجرا لا يهتدى إليه حساب.

وفى الحديث أنه ينصب الموازين يوم القيامة لأهل الصلاة والصدقة والحج فيوفون بها أجورهم، ولا ينصب لأهل البلايا ميزان، بل يصب عليهم الأجر صبا، حتى يتمنى أهل العافية فى الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل[1].

وقال البغوى: الذين صبروا على دينهم فلم يتركوه للأذى. نزلت فى جعفر بن أبى طالب وأصحابه حيث لم يتركوا دينهم لما اشتد بهم البلاء، وصبروا وهاجروا. قال على رضى الله عنه: كل مطيع يكال له كيلا، ويوزن له وزنا، إلا الصابرون فإنهم يحثى لهم حثيا، ويروى أنه يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر بغير حساب[2].

حكاية

نقل اليافعى فى روض الرياحين عن يونس نبى الله أنه قال لجبريل عليه السلام: دلنى على أعبد أهل الأرض. فأتى به على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وهو يقول: متعتنى بهما حيث شئت، وأخذتهما منى حيث شئت، وأبقيت لى فيك الأمل

(١) أنوار التنزيل: ص (٦٠٨).
(٢) تفسير البغوى: (٤/ ٧٤).

يا بر يا وصول. فقال يونس لجبريل: سألتك أن ترينى صواما قواما. فقال: قد كان هذا قبل البلاء هكذا، وقد أمرت أن أسلبه بـصره، فأشار إلى عينيه فسالتا. فـقال: متعتنى بهما حيث شئت، وأخذتهمـا منى حيث شئت، وأبقيت لى فيك الأمل يابر يا وصول. فـقال لـه جبـريل: هلم تدعـو وندعـو معـك يرد الله عليك بصـرك ويديك ورجليك وسمعك. قال: ما أحب ذلك. قال: ولم؟ قال: إذا كانت محبته فى هذا فمحبته أحب إلى. فقال يونس: ما رأيت أحدا أعبد من هذا. فقال جبريل: هذا طريق لا يوصل إلى رضا الله بشىء أفضل منه.

المجلس الخامس عشر

في الشكر على النعماء

أخرج الشيخان عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»(١).

وأخرج الترمذي عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد إن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة أن يشكره عليها**»(٢).

قوله: «**قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه**» أي صلى من الليل قائما حتى انتفخت قدماه، كما في رواية أخرى. وقوله: «**قد غفر الله لك**»: أي أنت مغفور لك.

ومقتضى هذا خلاف الأولى وإلا فإن النبي ﷺ معصوم قبل النبوة وبعدها. وتقديره فلا حاجة لك في كثرة الصلاة التي أدت إلى ورم قدميك.

قوله: «**أفلا أكون عبدا شكورا**» أي كثير الشكر لله تعالى، وذلك في مقابلة قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]. فإن الفضل العظيم يقتضي زيادة الشكر من العبد الشكور.

قال القاضي عياض: الشكر: معرفة إحسان المحسن، والتحدث به، وسميت المجازاة على فعل الجميل شكرا؛ لأنها تتضمن الثناء عليه. وشكر العبد لله تعالى اعترافه بنعمته، وثناؤه عليه، وتمامه: مواظبته على طاعته. والشكر شامل لسائر الأخلاق والأعمال، فإن معناه يرجع إلى الطاعة، سواء كانت باللسان أو بالجوارح أو بالقلب، فهو شامل للذكر والتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، وكل قول في خير، وشامل للصلاة والصدقة والصوم وكل عمل صالح، وللصدق والإخلاص وحسن النية وعدم

---

(١) متفق عليه: البخاري في التهجد (١١٣٠) وفي التفسير (٤٨٣٦) ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٩/ ٧٩ - ٨١).

(٢) إسناد صحيح: الترمذي في الأطعمة (١٨١٦).

رؤية النفس وتزكيتها، وكل قصد صالح[١].

قوله: «**يأكل الأكلة ويشرب الشربة**». الأكلة والشربة للمرة الواحدة، فيحمد الله عليها. أى على تلك الأكلة أو الشربة. وعبر بالمرة إشعار بأن الأكل والشرب يستحقان الحمد عليه وإن قل. وهذا تنويه عظيم بمقام الشكر.

قال الله تعالى: ﴿ **اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)** ﴾ [سبأ: ١٣]. قيل المراد بآل داود داود نفسه. وقيل: داود وسليمان وأهل بيته، أى اعملوا له واعبدوه شكرا. قال جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا البنانى يقول: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى ﴿**وقليل من عبادى الشكور**﴾ العامل بطاعتى شكرا لنعمتى، قاله البغوى[٢].

وقال البيضاوى ﴿**وقليل من عبادى الشكور**﴾ أى المستوفى على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته، ومع ذلك لا يوفى حقه لأن توفيقه للشكر يستدعى شكرا آخر، لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر[٣].

والحاصل أن الشكر لله تعالى على ما أنعم أمر لازم على المكلف، وبه يحصل مزيد النعم، وله أسرار عظيمة فى ترقى المقامات العالية عند الله تعالى وعند الناس، فمن وفقه الله تعالى للمداومة عليه، وعلى الصبر على البلاء، فقد اختصه الله بمزيد العناية والهداية، وسلك به مسالك المقربين الأبرار.

حكاية

ذكر أبو الليث السمرقندى فى تنبيه الغافلين عن محمد بن كعب القرظى أن سليمان ابن داود عليه السلام ركب مركبا، فجاءه أناس من قومه فقالوا: يا رسول الله، أعطيت شيئا لم يعطه أحد قبلك. فقال سليمان عليه السلام: أربع خصال من كن فيه فهى خير مما أعطى آل داود من الدنيا: خشية الله فى السر والعلانية، والقصد أى التوسط بين الإسراف والتقتير فى الغنى والفقر، والعدل فى الغضب والرضا، وحمد الله تعالى على السراء والضراء. ولا شك أن هذا الحمد هو الشكر المطلوب، وهو من أفضل مقامات أهل القلوب.

---

(١) مسلم بشرح النووى: (١٧/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) تفسير البغوى: (٣/ ٥٥٢).

(٣) أنوار التنزيل: ص (٥٦٧).

المجلس السادس عشر

فى بر الوالدين

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك»(١).

وأخرج الشيخان أيضًا عن أبى بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس وقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور ألا وقول الزور وشهادة الزور»، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(٢).

قوله: «بحسن صحابتى» يعنى صحبتى. وفيه الحث على بر الأقارب، وأن الأم أحقهم بذلك، ثم بعدها الأب، ثم الأقرب فالأقرب.

قال العلماء: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناتها المشاق فى حمله ثم وضعه ثم تربيته وخدمته ومعالجة أو ساخه وتمريضه وغير ذلك، وغير ذلك.

ونقل الحارث المحاسبى إجماع العلماء على أن الأم تفضل فى البر على الأب. قال القاضى عياض: على أن الأم والأب آكد حرمة فى البر ممن سواهما، ويستحب أن تقدم الأم فى البر، ثم الأب، ثم الأولاد، ثم الأجداد والجدات، ثم الإخوة والأخوات ثم سائر المحارم من ذوى الأرحام كالأعمام والعمات والأخوال والخالات، ويقدم الأقرب فالأقرب. ذكره النووى فى شرح مسلم(٣).

قوله: «وعقوق الوالدين». يقال: عق والده يعقه عقوقًا، إذا آذاه وعصاه وخرج عليه، وهو ضد البر به، وأصله من العق، وهو الشق والقطع. وقوله: «وكان متكئًا

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الأدب (٥٩٧١) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٤٨/ ١).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الشهادات (٢٦٥٤) ومسلم فى الإيمان (٨٧/ ١٤٣).

(٣) مسلم بشرح النووى: (٢/ ٨٦).

فجلس»، إنما فعل ذلك اعتناء بتبليغ هذا الحكم للأمة، فإنه من أهم الأحكام، لما يترتب عليه من تضييع الحقوق بين الناس. وأما الزور فقال أبو إسحاق الثعلبى المفسر وغيره: أصل الزور: تحسين الشىء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل لمن رآه أو سمعه أنه بخلاف ما هو به، فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق. وأما الفرق بين قول الزور وشهادة الزور: فإن قول الزور عام فى الشهادة وغيرها، وليس بملزم شيئًا على الغير، أما شهادة الزور فإنها خاصة، وملزمة للغير، وإثمها أكبر من إثم قول الزور.

والحاصل: أن بر الوالدين وغيرهما من الأقارب معناه الإحسان إليهم بنوع من الخير، ومن ذلك طاعتهم، وامتثال أمرهم ونهيهم فيما فيه الطاعة لله تعالى، دون ما فيه معصية، فلو أمره أحد أبويه بما فيه الكفر أو المعصية فلا يجوز له بره فى ذلك، ولو أمره أبوه الكافر أو أمه الكافرة بما ليس بمعصية وجب برهما. فالبر على الابن واجب على أى حال، والعقوق حرام، عليه فيما ليس بمعصية.

قال الله تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فى تفسير البغوى: ﴿**وقضى ربك**﴾ قال ابن عباس وقتادة: أمر ربك، وقال مجاهد: أوصى ربك. ﴿**وبالوالدين إحسانًا**﴾ أى وأمر بالوالدين إحسانًا وعطفًا عليهما. ﴿**فلا تقل لهما أف**﴾، وهو جار على مقتضى العادة، فى أن الأبوين إذا كبرا أو أحدهما يحتاج إلى الابن وإلى خدمته، وأما إذا لم يبلغا أو أحدهما الكبر فالابن محتاج إليهما حينئذ لا هما يحتاجان إليه، وإلا فإن الابن منهى عن قول ذلك مطلقًا فى كبرهما وفى صغرهما[(١)].

قال البيضاوى: فلا تضجر بما يستقذر منهما، ويستثقل من مؤنتهما، وهو صوت يدل على تضجر، والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسًا بطريق الأولى. وقيل عرفًا، كقولك: فلان لا يملك النقير والقطمير. ﴿**ولا تنهرهما**﴾ لا تزجرهما عما لا يعجبك. ﴿**وقل لهما قولاً كريمًا**﴾ بدل التأفيف[(٢)].

---

(١) تفسير البغوى: (٣/ ١١٠).

(٢) أنوار التنزيل: ص (٣٧٤).

وقال البغوى: لا تزجرهما ﴿وقل لهما قولاً كريمًا﴾ حسنًا جميلاً لينا. قال ابن المسيب: كقول العبد المذنب لسيد الفظ. وقال مجاهد: إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولان فلا تتقذرهما، ولا تقل لهما أف حين يمتط عنهما الخلا والبول كما كانا يميطان عنك صغيرًا[١].

﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ أى ألن جانبك واخضع. قال عروة بن الزبير: لن لهما حتى لا تمتنع من شيء أحباه ﴿من الرحمة﴾ أى من الشفقة. وقال البيضاوى: تذلل لهما وتواضع. جعل للذل جناحًا وأمره بخفضه لهما مبالغة، أو أراد جناحه كقوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ٨٨]. والمعنى واخفض لهما جناحك الذليل ﴿من الرحمة﴾ من فرط رحمتك عليهما، لافتقارهما إلى من كان أفقر خلق الله إليهما، ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ادع لهما أن يرحمهما برحمته الباقية وإن كانا كافرين؛ لأن من الرحمة أن يهديهما، ﴿كما ربيانى صغيرا﴾ رحمة مثل رحمتهما علىّ وتربيتهما وإرشادهما لى فى صغرى وفاء بوعدك[٢].

حكاية

أخرج البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال النبى ﷺ: «**بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار فى جبل، فانحطت صخرة من الجبل على فم غارهم فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعو الله بها لعله يفرجها عنكم. قال أحدهم: اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى، وإنى استأخرت ذات يوم فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أسقى الصبية وهم يتضاغون عند قدمى حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله فرأوا السماء. وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت منها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعتها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقمت، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة، ففرج. وقال الثالث: اللهم إنى استأجرت أجيرا بفرق أرز. فلما قضى عمله قال:**

---

(١) تفسير البغوى: (٣/ ١١٠).
(٢) تفسير البغوى: (٣/ ١١٠، ١١١).

أعطنى حقى، فعرضت عليه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعاتها، فجاءنى فقال: اتق الله. فقلت: اذهب إلى ذلك البقر ورعاتها فخذ. فقال: اتق الله ولا تستهزئ بى. فقلت: إنى لا أستهزئ بك، فأخذه. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى، ففرج الله»[1].

«رحت»: رددت الماشية من المرعى. «يتضاغون»: يصيحون من الجوع. «الفرجة»: الخلل. «الخاتم»: كناية عن بكارتها.

وقد استدل العلماء بهذا الخبر على أنه يستحب للإنسان أن يدعو فى حال كربه وفى الاستسقاء وغيره بصالح عمله، ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستجاب الله لهم، وذكره النبى ﷺ فى معرض الثناء عليهم. وفى ذلك فضل بر الوالدين، وفضل العفاف، وفيه إثبات كرامات الأولياء بنحو إجابة الدعاء فى الحال وهو مذهب أهل الحق والله أعلم.

---

(١) متفق عليه: البخارى فى البيوع (٢٢١٥) وفى الإجارة (٢٢٧٢) ومسلم فى الزهد والرقاق (٢٩٦٤/ ١٠) بمعناه.

المجلس السابع عشر
فى فضل التوبة والاستغفار

أخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة**»[١].

وأخرج البخارى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال: «**والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة**»[٢].

وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[٣].

قوله: «**لله**». اللام المفتوحة للقسم المقدر. والفرح من الله الرضا، والمعنى هنا أن الله يرضى بتوبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيدًا لمعنى الرضا فى نفس السامع، ومبالغة فى تقريره. «**سقط على بعيره**». أى وجده وصادفه بلا قصد. «**أضله**»: فقده.

وأصل التوبة فى اللغة الرجوع. والمراد هنا الرجوع عن الذنب. ولها ثلاثة أركان: الإقلاع، والندم على فعل المعصية، والعزم على ألا يعود أبدًا. فإن كانت المعصية لحق آدمى فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب الحق.

وقال بعضهم: إن رد المظالم والخروج عنها برد المال أو الإبراء منه واجب آخر فى نفسه لا مدخل للتوبة فيه، وهو مذهب الجمهور، فتصح التوبة ويبقى حق العباد دينا عليه، كمن وجب عليه صلاتان فأتى بإحداهما دون الأخرى فقد صحت التى أتى بها، وبقيت الأخرى فى ذمته.

واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة، وأنها واجبة على الفور، لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة. والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الدعوات (٦٣٠٩) ومسلم فى التوبة (٢٧٤٧/ ٧).
(٢) البخارى فى الدعوات (٦٣٠٧).
(٣) مسلم فى التوبة (٢٧٤٩/ ١١).

المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، ولا يجب على الله تعالى قبولها إذا وجدت شروطها عقلاً عند أهل السنة، لكنه سبحانه يقبلها كرمًا منه وتفضلاً، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع خلافا لهم.

وإذا تاب من ذنب ثم ذكره، هل يجب تجديد الندم؟

فيه خلاف عند العلماء من أهل السنة، قال ابن الباقلانى: يجب. وقال إمام الحرمين: لا يجب. وتصح التوبة من الذنب وإن كان مصرًا على ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه الذنب الثانى ولم تبطل توبته، هذا مذهب أهل السنة فى المسألتين، وخالفت المعتزلة فيهما. ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت.

ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها، وما سواها من أنواع التوبة إذا وجدت شروطها فهى صحيحة، وهل قبولها مقطوع به أم مظنون؟ فيه خلاف لأهل السنة. واختار إمام الحرمين أنه مظنون وهو الأصح.

قوله: «**أكثر من سبعين مرة**». الظاهر أن المراد من السبعين مجرد التكثير دون العدد، وهذا الاستغفار والتوبة منه ﷺ لتصفية قلبه من أوساخ الخواطر الدنيوية لضرورة الاختلاط بالناس، وتبليغهم ما كلفه الله تعالى به من الأحكام الشرعية، فإن مجرد خطور معانى الأكوان فى الخاطر - وإن لم يكن ذلك ذنبًا من عامة المؤمنين - فإنه ذنب عند خاصتهم، فكيف بخاصة الخاصة وهم النبيون، فإن مقامه ﷺ يقتضى دوام الحضور، ولهذا قال سبحانه له: ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا** ﴾ [النصر: ١ - ٣]. يعنى استغفره مما يقع فى نفسك من خواطر الأغيار بسبب مخالطتك للناس لضرورة التبليغ. وقال البيضاوى: واستغفره هضمًا لنفسك، واستقصارًا لعملك، واستدراكًا لما فرط منك بالالتفات إلى غيره[١].

قوله: «**لو لم تذنبوا**». يعنى لو لم يصدر منكم الذنب للزم تعطيل أسماء الألوهية، ومنها الاسم الغفور، والاسم التواب، ومنها اسم الحليم، ومنها اسم الجبار المنتقم، إلى غير ذلك من الأسماء الإلهية، وتعطيل الأسماء من ظهور آثارها لا يليق بالحكمة

(١) أنوار التنزيل: ص (٨١٣).

الإلهية، فلو لم تذنبوا لاقتضت الحكمة الإلهـية أن يخلق الله تعالى خلقًا غيركم يذنبون فتظهـر فيـهم آثار تلك الصفات الإلهـية التى منهـا المغفرة وقـبول التـوبة، وهو قوله: «فيستغفرون الله فيغفر لهم».

وفى الحديث دلالة على أنه لو تكرر الذنب مائة مرة وأكثر، وتاب فى كل مرة قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن جميعها توبة واحدة بعد جمعها صحت توبته.

والحاصل أن التـوبة أمر مـهم فى الشريعـة دائمًا فى كل حـال من الذنوب الظاهرة والباطنة. وسبب انطمـاس القلب وعدم ارتفاع الحجاب: تراكم الذنوب المانعة بـظلمتها عن شهود أنوار جلال الله تعالى وجماله، فإذا تاب الـعبد توبة صحيحة عن صدق منه وإخلاص انشـرح صدره بنور الإيمان، وزالت عنه الحجب المانعـة من الشهود والعـيان، ولهذا قال الأولياء العارفون بالله تعالى: التوبة معراج السالكين.

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التحريم: ٨].

قال البيضاوى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط، سيما فى الكف عن الشهوات. ﴿لعلكم تفلحون﴾ بسعادة الدنيا والآخرة[(١)].

وقال البغوى: ﴿توبوا﴾ من التقصير فى أمره ونهيه. ﴿توبة نصوحًا﴾ أى ذات نصوح ينصح صاحـبها بترك الـعود إلى ما تاب منه. واختلفـوا فى معناه. قال عـمر وأبى بن كعب ومعاذ: التوبة النصوح: أن تتـوب ثم لا تعود إلى الذنب، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. ذكره البغوى[(٢)].

قوله: ﴿يكفر عنكم سيئاتكم﴾. أى يغفر لكم ذنوبكم. وقال البيضاوى: ذكر بصيغة الإطماع جريا على عـادة الملوك، وإشعارًا بأنه تفضل، والتـوبة غير موجبـة، وإن العبد ينبغى أن يكون بين خوف ورجاء[(٣)].

---

(١) أنوار التنزيل: ص (٤٦٨).

(٢) تفسير البغوى: (٤/ ٣٦٧).

(٣) أنوار التنزيل: ص (٧٤٧).

حكاية

أخرج البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ قال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقال ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك فى صورة آدمى، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فقاسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[1]. قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء بصدره. ومعناه: بعد، أى نهض بصدره إلى جهة الأرض التى قصد إليها، فكان بهذا الاعتبار أقرب إليها، أو بعد عن الأرض التى فارقها.

(١) متفق عليه: البخارى فى الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٦/ ٤٦) بنحوه.

المجلس الثامن عشر
فى فضائل الذكر

أخرج مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى قالا: قال رسول الله ﷺ: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**»(١).

وأخرج الترمذى وابن ماجة عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**ذكر الله**»(٢).

وأخرج الترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»(٣).

وأخرج البزار ورجاله ثقات عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه دخل الجنة**»(٤).

قوله: «**لا يقعد قوم يذكرون**»، صريح فى ذكر الله بطريق الاجتماع، سواء كان بالإسرار أو بالجهر، وليس لذكر الله تعالى وقت معين، ولا شرط يلزم، ولا كيفية مخصوصة، ولا يجوز النهى لأحد من الناس فى أى مجلس كان، سواء كان فى المسجد أو البيت أو الطريق أو السوق، ما عدا مواضع القاذورات والنجاسات، فإنه يكره فيها ذكر الله تعالى باللسان، فيذكر بقلبه.

ولا يتعين لذكر الله تعالى لغة دون لغة، بل يجوز باللغات كلها، حتى أن من يلحن

---

(١) مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٠/ ٣٩).

(٢) **إسناده حسن**: الترمذى فى الدعاء (٣٣٧٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٧٩٠) قلت: فى سنده عبد الله بن سعيد صدوق كما فى التقريب.

(٣) **إسناده صحيح**: الترمذى فى الدعاء (٣٣٨٣) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٦٦٧) وابن ماجة فى الأدب (٣٨٠٠) وابن حبان فى صحيحه (٨٤٣ - إحسان).

(٤) **إسناده صحيح**: البزار فى كشف الأستار (٧) وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ١٧): رجاله ثقات.

بالذكر من عوام الجاهلين إن كان مراده ذكر الله تعالى فهو ذاكر بلغة له مخصوصة، ولا يلزم أن تكون لغة عربية.

وأما ما ذكره العلماء من كراهة اللحن فى الأذان وفى غيره من الأذكار المشروعة فى الصلاة وغيرها، فالوجه فيه أنها كلمات وردت بها السنة، فلا يجوز تغييرها، ولا اللحن فيها.

وأما ذكر الله تعالى المطلق فالألفاظ الواردة فيه لا يجوز اللحن فيها، وما لم يرد فيه شيء فهو موكول إلى لغة الذاكر وقصده ونيته.

قوله: «حفتهم الملائكة» أى استدارت حولهم تتبرك بهم، وتحرسهم من تطرق الشيطان إليهم، وتشهد لهم بما صدر منهم من الطاعات إلى غير ذلك مما يعلمه الله تعالى.

قوله: «وغشيتهم الرحمة» أى شملتهم وسترتهم رحمة الله تعالى، فلا ينالهم غضبه ولا عقابه، والسكينة هى الهيبة والوقار والخشية، فتشرق الأنوار على ظواهرهم، وتظهر الأسرار فى بواطنهم.

قوله: «وذكرهم الله». أى بالمثوبات والأجور وأنواع الفضل والشرف والنور. فيمن عنده من أهل حضرته سبحانه وتعالى من الملائكة المقربين، وهى زيادة مزية لهم، ورفعة بين المؤمنين.

قوله: «ألا أنبئكم»، أى أخبركم معاشر المؤمنين. «بخير أعمالكم». أى أفضلها «وأزكاها»، أى أنماها وأظهرها «عند مليككم»، أى ربكم ومولاكم. «وأرفعها فى درجاتكم»، أى منازلكم فى الجنة. «وخير لكم من إنفاق الذهب». أى فى سبيل الله تعالى.

قوله: «ذكر الله». الذكر هو المقصود الأعظم؛ لأن جميع العبادات من الإنفاق ومقاتلة العدو وغير ذلك وسائل ووسائط يتقرب بها إلى الله تعالى الحق الذى هو المقصود الأعظم، والقلب الذى تدور عليه رحى جميع الأديان، فإذا امتلأ من الذكر دار به ولا يسع غيره حينئذ.

قوله: «أفضل الذكر لا إله إلا الله». إنما كانت أفضل الذكر لأنها كلمة التوحيد، وهو

لا يماثله شيء، وهى الفارقة بين الكفر والإيمان، ولأنها أجمع للقلب مع الله تعالى، وأنفى للغير، وأشد تزكية للنفس، وتصفية للباطن، وتنقية للخاطر من حديث النفس، وأطرد للشيطان.

وقوله: «وأفضل الدعاء الحمد لله». إنما كانت هذه الكلمة كذلك لأن الدعاء عبارة عن ذكر الله، وطلب الحاجة منه، والحمد يشمل ذلك؛ لاقتضائه مزيد النعمة، من قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

قوله: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا». من غير شائبة شرك جلى أو خفى، ولا شائبة رياء ولا سمعة، ومات على ذلك «دخل الجنة». يعنى فى يوم القيامة مع عباد الله الصالحين، من غير عذاب يسبق له.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

قال البغوى: قال ابن عباس: لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدًا معلومًا، ثم عذر أهلها فى حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدًا ينتهى إليه، ولم يعذر أحدًا فى تركه، إلامغلوبًا على عقله، وأمرهم به فى الأحوال كلها، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وقال: ﴿اذكروا الله ذكرًا كثيرًا﴾ بالليل والنهار، فى البر والبحر، والصحة والسقم، فى السر والعلانية. وقال مجاهد: الذكر الكثير: أن لا ينساه أبدًا(١).

وقال البيضاوى: ﴿ذكرًا كثيرًا﴾ يقلب الأوقات بأنواع ما هو أهله من التقديس والتمجيد والتهليل والتحميد ﴿وسبحوه بكرة وأصيلا﴾. أول النهار وآخره(٢).

وقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) تفسير البغوى: (٣/ ٥٣٤).

(٢) أنوار التنزيل: ص (٥٥٩).

حكاية:

قال الإمـام الزندويستى فى كـتابه «روضة العلمـاء» عن أبى بكر محـمد بن إبراهيم الواسطى أنه قال: إن رجلاً صـالحًا كان واقفًا بعـرفات وفى يديه سبعة أحجـار، فقال: أيتهـا الأحجار السبـعة، أشهدكم أنى أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمـدًا رسول الله، فنام، فرأى فيما يرى النائم كأن القيامـة قد قامت، وأنه حوسب فوجبت له النار، فلما ساقـوا به إلى باب النار فإذا هـو بحجر من تلـك السبعـة ألقى نفسـه على باب النار، فاجتمـعت الملائكة على رفعه فلم يقدروا على ذلك، ثم سيق به إلى الـباب الثانى فإذا عليه آخـر من تلك الأحجار ولم تقـدر الملائكة على رفعه، حـتى سيق به إلى الأبواب السبعـة، فوجدوا على كل باب حجـرًا، ثم سيق به إلى العرش فقـال الرب تعالى: يا عبدى أشهدت الأحجار فلم تضـيع حقك، فكيف أضيع حقك، وأنا شاهد بشهادتك، أدخلوه الجنة، فلما قـرب من باب الجنان إذا الأبواب مغلقة، فجـاءت شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا ففتحت الأبواب، فدخل الجنان، وأفاق من منامه فرحًا مسرورًا.

المجلس التاسع عشر
فى فضل قراءة القرآن

أخرج الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها**»[١].

وأخرج الترمذى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن أقول ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[٢].

قوله: «الأترج». معروف، والمراد بالطعم فى المواضع الأربعة ما انطوى عليه الإنسان فى باطن أمره. والمراد بالريح ما ظهر منه على ظاهر حاله. وتفصيل ذلك معلوم من الحديث.

والمراد بضرب المثل بيان علو شأن المؤمن، وارتفاع عمله، وانحطاط شأن الفاجر، وإحباط عمله.

والحاصل أن قراءة القرآن من أفضل الأعمال التى تتوجه إليها همم الرجال. فينبغى أن يقرأه بالإخلاص على الطهارة الكاملة فى ظاهره وباطنه، وأن يتدبر معانى ما يقرؤه على حسب قدرته وطاقته، وألا يعجل فى قراءته، وأن يتمهل فيها، وأن يرفع صوته إذا أمن الرياء والتشويش على مصل أو نائم أو غيرهما.

ويستحب تحسين الصوت بالقراءة ما لم يخرج عن حد القراءة، وأن يتأدب مع القرآن، وأن يستحضر فى ذهنه أنه يناجى الله تعالى، ويتلو كتابه، وأنه يريد بذلك وجه الله تعالى، ولا يقصد به التوصل إلى شيء من عرض الدنيا، ، وأن يجتهد فى الدعاء عند ختم القرآن، فقد ورد فى مسند الدارمى عن حميد الأعرج: أن من قرأ القرآن ثم

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الأطعمة (٥٤٢٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٧/ ٢٤٣).

(٢) إسناده صحيح: الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩١٠) وقال: حديث حسن صحيح وهو كما قال.

دعاء أمن على دعائه أربعة آلاف ملك[(١)]، وينبغى أن يلح فى الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة، والكلمات الجامعة، وأن يكون معظم ذلك فى أمور الآخرة وأمور المسلمين، وإصلاح سلطانهم، وسائر ولاة أمورهم، وفى توفيقهم للطاعات، وعصمتهم من المخالفات، وتعاونهم على البر والتقوى، وقيامهم بالحق واجتماعهم عليه، وظهورهم على أعدائهم، وعلى سائر المخالفين.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة. قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩ ، ٣٠]. قال البيضاوى: أى يداومون قراءة كتاب الله ومتابعة ما فيه حتى صار لهم سمة وعنوانًا[(١)].

وقال البغوى: يعنى قراءة القرآن ﴿تجارة لن تبور﴾ لن تكد ولن تهلك. وينبغى قراءة القرآن وإهداء ثوابه للموتى فإن الله يجعل نظير ذلك للموتى أنوار، تمدهم فى عالمهم ذلك وأسرار تتحفهم فيما هم بصدده من الأحوال السنية والكمالات القدسية[(٢)].

حكاية

ذكر اليافعى فى روض الرياحين قال: ذكر بعض أهل العلم أن رجلاً رأى فى النوم أهل القبور فى بعض المقابر قد خرجوا يلتقطون شيئًا لا يدرى ما هو، ، فتعجبت من ذلك، ورأيت واحدًا منهم جالسًا معهم لا يلتقط معهم شيئًا، فدنوت منه وسألته: ما الذى يلتقط هؤلاء؟ فقال: يلتقطون ما يهدى إليهم المسلمون من قراءة القرآن والصدقة والدعاء. قال: فقلت له: لم لا تلتقط أنت معهم؟ فقال: أنا أغنى عن ذلك بختمة يقرأها ولدى كل يوم ويهديها إلىّ. فلما أصبحت ذهبت إليه فإذا هو جالس يحرك شفتيه بقراءة القرآن، فسألته فقال: هدية إلى والدى فى قبره. قال: فمكثت مدة من الزمان، ثم رأيت فى المنام أن الموتى خرجوا يلتقطون، فإذا بالرجل الذى كان لا يلتقط معهم صار يلتقط معهم، فاستيقظت وتعجبت، وذهب إلى ولد ذلك الرجل فإذا هو قد مات رحمه الله تعالى.

---

(١) إسناده ضعيف: الدارمى (٣٤٨١) قلت: فيه قزعه بن سويد ضعيف كما فى التقريب.
(٢) أنوار التنزيل: ص (٥٧٨).
(٣) تفسير البغوى: (٣/ ٥٧٠).

المجلس العشرون

فى فضل الصدقات

أخرج البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية. فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى. فأتى فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله»[1].

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أى الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان»[2].

قوله: «اللهم لك الحمد». يعنى على ما وقع من الصدقة وكونها وقعت فى يد سارق، قال ذلك تعجبًا من حالته من إخلاصه وكونها وقعت فى يد من لا يستحق بحسب الظاهر، والإخلاص يقتضى القبول من الله تعالى، وكذلك الصدقة على الزانية والغنى فيها ما ذكرنا من التعجب منه ومن الناس.

قوله: «أتى». أى أتاه آت فى المنام أو اليقظة، بأن تشكل له ملك فى صورة إنسان وأزال عنه ذلك التعجب الذى كان منه، وأظهر له فضيلة صدقته، وأنها وقعت فى محلها. وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغى له أن يتحرى فى إعطاء صدقته للغير، وإنما ينبغى الإخلاص فيها بكمال جهده، فإن الله يوقعها فى محلها ببركة إخلاصه كما فى الحديث.

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الزكاة (١٤٢١) ومسلم فى الزكاة (١٠٢٢/ ٧٨).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الزكاة (١٤١٩) ومسلم فى الزكاة (١٠٣٢/ ٩٢).

قوله: «**وأنت صحيح شحيح**». أى صحيح البدن غير مريض. والشح زيادة البخل، ومعناه أن الشح غالب فى حال الصحة، فإذا سمح فيها وتصدق كان أصدق فى نيته، وأعظم لأجره، بخلاف من أشرف على الموت وأيس عن الحياة، ورأى مصير المال لغيره، فإن صدقته حينئذ ناقصة بالنسبة إلى حالة الصحة والشح ورجاء البقاء وخوف الفقر.

قوله: «**وتأمل الغنى**» أى: وتطمع فيه. ومعنى «**بلغت الحلقوم**»: قاربت بلوغ الحلقوم، إذ لو بلغته حقيقة لم تصح وصيته ولا صدقته ولا شىء من تصرفاته باتفاق الفقهاء.

قوله: «**وقد كان لفلان كذا**». قال الخطابى: المراد به الوارث. وقال غيره: المراد سبق القضاء به للموصى له[1].

قال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [المنافقون: ١٠] . قال البيضاوى: ﴿**أنفقوا**﴾ ادخارًا للآخرة قبل أن يرى أحدكم دلائل الموت فيقول: لولا أمهلتنى إلى أمد غير بعيد فأتدارك أمرى[2].

وقال البغوى: أنزلت الآية فى المنافقين وقيل: فى المؤمنين[3].

والحاصل: أن الله تعالى أمر بالصدقة فى حال الحياة والصحة من قبل أن ينزل الموت بالإنسان فيتمنى أن لو عاد إلى الدنيا، وفعل أنواع الخير من الصدقات والصلات، ولا يمكنه حينئذ التدارك ولا الرجوع إلى الدنيا، ليأتى بما علم أن عاقبته حميدة. فالذى ينبغى له الآن أن يكون على بصيرة من أمره، ويبادر إلى فعل الخير قبل أن يسلب الاستطاعة والقدرة على ذلك، فإن الصدقة لها ثواب عظيم، وأجر جزيل، وتدفع البلاء عن صاحبها، وتبدل سوء القضاء بما هو الخير بالذات.

---

(١) مسلم بشرح النووى: (٧/ ١٢٣، ١٢٤).
(٢) أنوار التنزيل: ص (٧٣٩).
(٣) تفسير البغوى: (٤/ ٣٥١).

حكاية

ذكر الإمام السمرقندى فى كتابه رونق المجالس قال: حكى أنه كان فى زمان سليمان عليه السلام رجل، وكان فى داره شـجرة، فعشش عليها قمرى، فلمـا فرخت القمرية أخذ صاحب الدار أفراخها، فشكت القمرية إلى سليمان وقالت: يا نبى الله، قد شخت ودنت وفـاتى، وأريد أن يكون لى فرخ، وصـاحب الدار يأخـذ أفراخى، فـاستـدعى سليمان ذلك الرجل، وقال له: انته عن أخذ أفراخها، فلم ينته، فبعث سليمان شيطانين وقال لهما: إذا قصد أخذ الأفراخ فارمـياه من فوق تلك الشجرة، فلما قصد الرجل أن يأخذ الأفراخ حـضر سائل على بابه، فأعطاه رغيـفًا، ثم صعد الشجـرة وأخذ الأفراخ وأراد الشيطانان أن يرمـياه، فجاء ملكان ورميـا الشيطانين. فرجع القمـرى إلى سليمان وأخبره بذلك، فطلب سليمـان الشيطانين فلم يجدهما إلا بعد مدة، فأخـبراه بالقصة، فعلم سليمان أن الصدقة ترد البلاء عن صاحبها.

وحكى فى الكتـاب المذكور أن عـيسى عـليه السـلام كان جـالسًا مع جـماعـة من أصحـابه، فمر قـصار ومـعه جملة من الشـياب، فـسلم عليهم ومضـى، فقال عـيسى لأصحابه: احـضروا جنازة هذا الرجل وقت الظهيرة فـإنه يموت فى ذلك الوقت. فلما كان نصف النهار ذهب عيسى إلى الموضع الذى يغسل القصار فيه الثياب، فرأى القصار يغسل الثيـاب وهو حى على حاله، فتعجـب عيسى من حاله، فنزل جبـريل عليه وقال له: إنه لما مضى عنكم تصـدق بصدقة، فدفع الله عنه البلاء، وذلـك أنه كان فى جملة الثياب التى يحملها حية سوداء، وكان فى التقدير أنه تلسعه، فلما تصدق ألجم الله الحية عن أذاه، وكان ذلك ببركة الصدقة.

المجلس الحادى والعشرون

فى الكـــبر

أخرج الشيخان عن حارثة به وهب الخزاعى أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر**»(١).

وأخرج مسلم عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر**». فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**»(٢).

قوله: «**كل ضعيف**». أى عن أذى الناس، أو فعل المعاصى. «**مستضعف**»: يستضعفه الناس ويحتقرونه، ويتجبرون عليه لضفعه.

وقال القاضى عياض: قد يكون الضعف هنا رقة القلب ولينه وإخباته للإيمان. والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء، كما أن معظم أهل النار القسم الآخر، وليس المراد الاستيعاب فى الطرفين. «**لو أقسم على الله لأبره**»: لوحلف طمعًا فى كرم الله بإبراره لأبره. وقيل: لو دعاه لأجابه. «**كل عتل**»: العتل الجافى الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: الجافى الفظ الغليظ. «الجواظ»: الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال فى مشيته. وقيل: القصير البطين، «**والمستكبر**»: صاحب الكبر(٣).

قوله: «**إن الرجل يجب أن يكون ثوبه حسنًا**». يعنى يحب التجمل بالثياب الجميلة الحسنة. وتقديره: فهل يكون شىء من هذا تكبرًا؟ فقال النبى ﷺ فى جوابه: «**إن الله جميل يحب الجمال**» يعنى أن كل أمره سبحانه حسن جميل، وله الأسماء الحسنى، يحب الجمال، أى تجمل العبد بإظهار النعم عليه وعدم كتمانها.

---

(١) متفق عليه: البخارى فى التفسير (٤٩١٨) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٣/ ٤٦).

(٢) مسلم فى الإيمان (٩١/ ١٤٧).

(٣) مسلم بشرح النووى (١٧/ ١٨٧، ١٨٨).

قوله: «الكبر». يعنى: إنما الكبر. «بطر الحق» أى دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا. «وغمط الناس»: احتقار الناس.

والحاصل: أن التكبر صفة مذمومة من غير الحق تعالى، وأما منه سبحانه فهى صفة محمودة وردت فى الكتاب والسنة. ومعناه فى العبد: الترفع والتجبر على غيره من المخلوقين واحتقارهم وإهانتهم بأن يجد نفسه أكبر من غيره فى علم أو شرف أو مال أو جاه ونحو ذلك.

قال الله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

[النحل: ٢٢، ٢٣].

قال البيضاوى: فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، بيان لما اقتضى إصرارهم بعد وضوح الحق، وذلك عدم إيمانهم بالآخرة، فإن المؤمن بها يكون طالبًا للدليل، متأملاً فيما سمع، فينتفع به، والكافر بها يكون حاله بالعكس، وإنكار قلوبهم ما لا يعرف إلا بالبرهان اتباعًا للأسلاف، وركونًا إلى المألوف، فإنه ينافى النظر، لا جرم حقًا إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون فيجازيهم(١).

حكاية

ذكر السمرقندى فى تنبيه الغافلين أن الحسين بن على: أنه مر بمساكين يأكلون كسرًا لهم على كساء فقالوا له يا أبا عبد الله الغداء، فنزل وقال: إنه لا يحب المستكبرين، فأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبونى. فانطلقوا معه، فلما أتوا المنزل قال لجاريته: أخرجى ما كنت تدخرين، فأخرجت من كل شىء، فأكلوا وأكل معهم، وحملوا بقية ذلك.

(١) أنوار التنزيل: ص (٣٥٤).

المجلس الثانى والعشرون

فى حسن النيـــة

أخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول على المنبر: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا**»(٢).

وأخرج الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ صعد المنبر فنادى بصوت رفيع: «**يا معشر من قد أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله**»(٣).

قوله: «**إنما الأعمال بالنيات**». أجمع المسلمون على عظم موقع هذا الحديث حتى قال الشافعى وآخرون: هو ثلث الإسلام. وقال بعضهم: ربع الإسلام. وقال بعضهم: إنه يدخل فى سبعين بابًا من الفقه.

وتقدير هذا الحديث أن الأعمال إنما تحسب إذا كانت بالنية، ولا تحسب إذا كانت بلا نية، يعنى أن الله تعالى يعتبرها بسبب النية، ويجازى عليها فى الآخرة الجزاء الجزيل، فالنية روح العمل، إن كانت حسنة فالعمل حسن، وإن كانت سيئة فالعمل سيء، وكل عمل لا نية فيه لا اعتبار له فى الشريعة أمرًا أو نهيًا، بمنزلة الجسد الميت الذى سقطت عنه التكليف، وإن صح العمل فى الوسائل دون المقاصد من غير نية، فإنه يصح باعتبار

---

(١) متفق عليه: البخارى فى بدء الوحى (١) وفى الإيمان (٥٤) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧/ ١٥٥).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الأدب (٦٠٦٤) ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٦٣/ ٢٨).

(٣) إسناده صحيح: الترمذى فى البر والصلة (٢٠٣٢).

كونه شرطًا لعمل آخر منوى، كالوضوء والغسل بلا نية عند أبى حنيفة تصح الصلاة به ولا ثواب عليه.

قوله: «وإنما لكل امرئٍ ما نوى» قالوا: فائدة ذكر هذا بعد قوله: «إنما الأعمال بالنيات»، لبيان أن تعيين المنوى شرط، فلو كان على إنسان صلاة يريد قضاءها لا يكفيه أن ينوى الصلاة الفائتة، بل يشترط أن ينوى كونها ظهرًا أو غيره، ولولا اللفظ الثانى لاقتضى الأول صحة النية بلا تعيين، أو أوهم ذلك.

قوله: «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله»... معناه: من قصد بهجرته وجه الله وقع أجره على الله، ومن قصد بها دنيا أو امرأة فهى حظه، ولا نصيب له فى الآخرة بسبب هذه الهجرة.

وأصل الهجرة: الترك. والمراد: ترك الوطن. وذكر المرأة مع الدنيا يحتمل وجهين.

أحدهما: أنه جاء هذا الحديث بسبب أن رجلا هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس، فقيل له: مهاجر أم قيس.

والثانى: أنه للتنبيه على زيادة التحذير من ذلك، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام تنبيها على مزيته والله أعلم.

قوله: «إياكم والظن»، أى احذروا اتباع الظن، وهو تهمة تقع فى القلب بلا دليل، والمراد النهى عن سوء الظن. قال الخطابى: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس فى النفس، فإن ذلك لا يملك[١]. ومراد الخطابى: أن المحرم من الظن ما يصر صاحبه عليه، ويستمر فى قلبه، دون ما يعرض فى القلب ولا يستقر، فإن هذا لا يكلف به.

ونقل القاضى عياض عن سفيان الثورى أنه قال: الظن الذى يأثم به هو ما ظنه وتكلم به، فإن لم يتكلم به لم يأثم[٢].

قوله: «فإن الظن أكذب الحديث». أى حديث النفس، لأنه يكون بإلقاء الشيطان فى نفس الإنسان.

قوله: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا». التحسس بالحاء المهملة الاستماع لحديث القوم. وبالجيم البحث عن العورات. وقيل: بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال

(١) معالم السنن: (٤/١٢٣).
(٢) مسلم بشرح النووى: (١٦/ ١١٩).

فى الشر، والجاسوس صاحب سر الشر، والناموس صاحب سر الخير. وقيل بالجيم أن تطلبه لغيرك، وبالحاء أن تطلبه لنفسك. وقيل: هما بمعنى، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة والأحوال.

قوله: «ولا تنافسوا ولا تحاسدوا». المنافسة: الرغبة فى التفرد بالشيء، والاستئثار به. والمراد هنا المخاصمة على الدنيا وشهواتها، والحظوظ العاجلة فيها. والتحاسد من الحسد، وهو تمنى زوال نعمة الغير. «ولا تباغضوا». أى لا تتعاطوا أسباب البغض والعداوة بعضكم لبعض. «ولا تدابروا». أى لا تتقاطعوا، من الدبر، فإن كل واحد منهما يولى صاحبه دبره.

قوله: «وكونوا عباد الله إخوانًا». أى كونوا يا عباد الله إخوانًا. أو كونوا متصفين بوصف العبودية لله وهو الذل والتواضع، ولا تخرجوا عن ذلك، فتخرجوا عن أصلكم.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

قال البغوى: قيل: نزلت فى رجلين اغتابا رفيقهما، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلى المنزل، فيهيئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب، فضم سلمان إلى رجلين فى بعض أسفاره، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ شيئاً. فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئًا؟ قال: لا، غلبتنى عيناى، قالا له: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاطلب لنا منه طعامًا، فجاء سلمان إلى النبى ﷺ وسأله طعامًا، فقال: انطلق إلى أسامة بن زيد وقل له: إن كان عنده فضل طعام فليعطك، وكان أسامة خازن رسول الله ﷺ، وصاحب رحله، فأتاه، فقال: ما عندى شيء، فرجع سلمان إليهما فأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة ولكنه بخل. فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا، فقالا: لو بعثناه إلى بئر سمحة لغار ماؤها، ثم انطلقا يتحسسان، فلما جاءا إلى رسول الله ﷺ قال: ما لى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما. قالا: والله يا رسول الله

ما تناولنـا يومنا هذا لحما. قـال: ظللتم تأكلون لحم أسـامة وسلمان، فـأنزل الله هذه الآية[١].

قال الثورى: الظن ظنان: أحدهما إثم، وهو أن يظن ويتكلم به، والآخر ليس بإثم، وهو أن يظن ولا يتكلم به. **«ولا تجسسوا»**. التجسس: البـحث عن عيوب الناس. نهى الله تعالى عن البحث عن المستور من أمور الناس، وتتبع عوراتهم حتى لا يظهر على ما ستره الله منها، **«ولا يغتب بعضكم بعضا»**. يقول: لا يتناول بعضكم بعضًا بظهر الغيب بما يسوءه مما هو فيه، **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا. فكرهتموه﴾**. قال مجاهد. لما قيل لهم: **﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميـتا؟﴾** قالوا: لا. قيل: **﴿فكرهتموه﴾**. أى فكما كرهتم هذا فاجتنبوا ذكره بالسـوء غائبًا. قال الزجاج: تأويله أن ذكرك من لم يحضرك بالسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت.

حكاية

نقل البغوى فى تفسـيره: قال ميمون بن سيار: بينما أنا نائـم إذا بجيفة زنجى وقائل يقول: كل . قلت: يا عبد الله، ولم آكل؟ قال: بم اغـتبت عبد فلان. قلت: والله ما ذكرت فيه خيرًا ولا شرًا. قال: لكنك استـمعت ورضيت. فكان ميمون لا يغتاب أحدًا ولا يدع أحدًا يغتاب أحدًا عنده[٢].

وفى كتاب تحفة الأكياس فـى تحسين الظن بالناس قال: قد وقع لبعض الوزراء بمصر أنه رأى سيدى على وفا، فنظر إلى مركبه وملبسـه فرآه كالسلاطين، فقال فى نفسه: ما ترك هؤلاء لنا من الأمور. فقال سيـدى على وفا لبعض أتباعه: اذهب إلى الوزير وقل له فى أذنه سرًا: تركـوا لكم خزى الدنيا، وعذاب الآخـرة، فتاب الوزير واستـغفر الله تعالى.

---

(١) تفسير البغوى: (٤/ ٢١٥، ٢١٦).
(٢) تفسير البغوى: (٤/٢١٦ ، ٢١٧).

المجلس الثالث والعشرون

فى السلام والتحية

أخرج الشيخان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك لنفر من الملائكة جلوس، فاستمع لما يجيبونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقال: وعليك السلام ورحمة الله، فزادوه رحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»(١).

وأخرج أبو داود والترمذى عن عمران بن حصين أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: السلام عليكم. فقال النبى ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فقال ﷺ: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال ﷺ: «ثلاثون»(٢).

وأخرج الشيخان والترمذى عن فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يسلم الراكب على الماشى، والماشى على القائم، والقليل على الكثير»(٣).

قوله: «على صورته» الضمير راجع إلى آدم، والمعنى أنه خلق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض، ولم ينتقل أطوارا كذريته، فكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير.

قوله: «فكل من يدخل الجنة على صورته» تقديره: يدخلها على صورته، أى على صفته فى الحسن والجمال، ولا يدخلها على صورة نفسه أى إنهم يخلقون كما خلق آدم دفعة واحدة على صورته التى كان عليها فى الدنيا.

وفى الحديث: أن الوارد على قوم جلوس يسلم عليهم، وأن الأفضل أن يقول:

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الأنبياء (٣٣٢٦) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤١/ ٢٨).

(٢) إسناده صحيح: أبو داود فى الأدب (٥١٩٥) والترمذى فى الاستئذان (٢٦٨٩) وقال حسن صحيح.

(٣) صحيح: البخارى فى الاستئذان (٦٢٣٢، ٦٢٣٣) ومسلم فى السلام (٢١٦٠/١) كلاهما عن أبى هريرة، والترمذى عن فضاله بن عبيد فى الاستئذان (٢٧٠٥) بلفظ: «يسلم الفارس على الماشى» إلخ. وقال: حسن صحيح.

السلام عليكم بالألف واللام، ولو قال: سلام عليكم كفاه، وأن رد التحية يستحب أن يكون بزيادة على الابتداء، وأنه يجوز أن يقول فى الرد: السلام عليكم، ولا يشترط أن يقول وعليكم السلام.

قوله: فقال: «عشر» أى بعد أن رد عليه السلام هو أو بعض الحاضرين، أخبر أن جزاءه عشر من الحسنات؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، والسلام حسنة، فجزاؤه عشر حسنات. وكذلك فى حق الرجل الثانى الذى سلم وزاد: «ورحمة الله»، أخبر أن له عشرين حسنة، لأنه أتى بحسنتين، ذكر السلام وذكر الرحمة، والحسنة بعشر أمثالها. وكذلك فى الرجل الثالث الذى أتى بالسلام والرحمة والبركة، أخبر أن له ثلاثين حسنة.

قوله: «يسلم الراكب على الماشى» هذا كله للاستحباب، فلو عكسوا جاز وكان خلاف الأفضل، ولعل وجه الأفضلية أن الراكب اعتبر كأنه مقبل على الماشى، لسرعته وارتفاعه عليه، والماشى مقبل على القائم، وكذلك القليل على الكثير، والسلام إنما يكون من المقبل على المقبل عليه.

وأما معنى السلام، فقيل: هو اسم من أسماء الله تعالى. فقوله: السلام عليكم معناه: اسم الله تعالى عليك. أى أنت فى حفظه، وهو معك يصحبك. وقيل: السلام بمعنى السلامة، أى السلامة ملازمة لك.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦) ﴾ [النساء: ٨٦].

قال البغوى: التحية هى دعاء الحياة، والمراد بالتحية ههنا السلام. يقول: إذا سلم عليكم مسلم فأجيبوا بأحسن مما سلم، أوردوها، أى ردوا كما سلم. فإذا قال: السلام عليكم فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله. وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وإذا زاد وبركاته فرد مثله. وقيل: إن رجلا سلم على ابن عباس فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال: إن السلام انتهى إلى البركة.

واعلم أن السلام سنة، ورده فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية، فإذا سلم واحد من جماعة كان كافيا فى السنة، وإذا سلم واحد على

جماعـة فرد واحد منهم كان كافـيا. وقوله: ﴿إن الله كان عليكم حسـيبا﴾. أى محاسبا ومجازيا على رد السلام بمثله أو خير منه. وقال أبو عبـيدة: كافيا. يقال: حسبى هذا، أى كفانى[1].

حكـايـة

ذكر اليافعى فى روض الرياحين قال: رأيت فى النوم كأن قبرا مفتوحا فدخلت فيه، فإذا هو واسع، وإذا فيه سرير عال عليه شخص نائم، فقلت: ما أقبح فعال بنى الدنيا، ما يتـركون الترفه حـتى بعد الموت، يدخلون فى القبـر السرير للموتى، فـإذا بصاحب السرير ينادينى إليه، فلم أقدر أن أصعد، لكون السـرير عاليا علوا مفرطا، ثم إنه سهل لى طريق من جانب القبـر، فصعدت فيـها كما يصعـد فى الدرج، حتى حاذيت النائم على السرير، فإذا هى والدتى رحمـها الله، فسلمت على سلامة بغاية الشفـقة البالغة، والرأفة الكاملة، ثم إنهـا ودعتنى بعد السـلام، فانتبـهت فوجدت الخيـر بذلك السلام والشفقة، حتى إذا ذكرت ذلك وجدت تأثيره فى قلبى بعد سنين.

---

(١) تفسير البغوى: (١/ ٤٥٨).

المجلس الرابع والعشرون

في التقوى

أخرج الترمذي عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة ما به البأس**»(١).

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله قال: «**من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن، أو يعلم من يعمل بهن**» فقال أبو هريرة: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي وعقد خمسا قال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب**»(٢).

قوله: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين**» بمعنى: لا يصل إلى درجة أهل التقوى الكاملة. «**حتى يدع**» أي يترك. «**مالا بأس به**» يعني فضول الحلال. حذر لما به البأس، يعني حذرا من الوقوع في الشبهة أو في الحرام، ويسمى هذا ورع المتقين، وهو الدرجة الثالثة من درجات الورع؛ لأن الدرجة الأولى هي الورع عن الحرام، والدرجة الثانية الورع عن الشبهات، وهذه الدرجة الثالثة: التورع عن المباحات مخافة الوقوع في الشبهات أو المحرمات، أما التورع عن المباحات نفسها من غير مخافة الوقوع في شيء من ذلك فهو الورع المظلم.

قوله: «**فقعد خمسا**» يعني عقد أصابع أبي هريرة الخمسة ثم عد كل واحدة وفتح أصبعا من يده.

قوله: «**اتق المحارم**» أي احذر الوقوع فيما حرم الله عليك. «**تكن أعبد الناس**» أي من أعبدهم؛ لأنه يلزم من ترك المحارم فعل الفرائض. «**وارض بما قسم الله لك**» أي أعطاك

---

(١) **إسناده ضعيف**: الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١) قلت: فيه عبد الله بن يزيد بن ربيعة مجهول كما في التقريب.

(٢) **إسناده ضعيف**: الترمذي في الزهد (٢٣٠٥) قلت فيه الحسن لم يسمع من أبي هريرة فهو منقطع.

من الرزق **«تكن أغنى الناس»**، فإن من قنع بما قسم له، ولم يطمع فيما فى أيدى الناس استغنى عنهم، كما قال ﷺ: **«ليس الغنى بكثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»**(١).

«وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا» أى المجاور لك فى دارك أو حانوتك أو أرضك. والإحسان يكون بالقول والفعل، تكن كامل الإيمان، وأحب للناس ما تحب لنفسك من الخير وعدم الشر تكن مسلما كامل الإسلام بأن تحب لهم ما تحب لنفسك من جهة لا يزاحمونك فيها. **«ولا تكثر الضحك»** وهو ما كان بصوت مسموع.

وفيه النهى عن مجالسة من يضحك الناس؛ لأن من جالسهم يضحك كثيرا. وكثرة الضحك تميت القلب، أى تجعله مغمورا فى الظلمات، بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها مكروها، وهذا الحديث من جوامع مع الكلم النبوى.

قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)** ﴾ [آل عمران: ١٠٢ - ١٠٥].

قال البيضاوى: ﴿**حق تقاته**﴾ حق تقواه، وما يجب منها هو استفراغ الوسع فى القيام بالواجب، والاجتناب عن النواهى، كقوله ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ (١٦)** ﴾ [التغابن: ١٦]. وعن ابن مسعود: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. وقيل: هو أن تنزه الطاعة عن الالتفات إليها، وعن توقع المجازاة عليها ﴿**ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ﴿**واعتصموا بحبل الله**﴾ أى بدينه الإسلام، أو بكتابه، لقوله ﷺ: **«القرآن حبل الله المتين»**(٢).

وقوله: ﴿**جميعا**﴾ أى مجتمعين عليه. ﴿**ولا تفرقوا**﴾ أى لا تفرقوا عن دين الله

---

(١) إسناد صحيح: الترمذى فى الزهد (٢٣٧٣) وقال: حسن صحيح، وابن ماجة فى الزهد (٤١٣٧).

(٢) إسناده ضعيف: الترمذى فى فضائل القرآن (٦ ٢٩) وقال: حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحرث مقال: قلت الحرث ضعيف.

بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتـاب. أو: لا تذكروا ما يوجب التفرق ويزيل الألفة. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ والتى فى جملتها الهداية والتوفيق للإسلام المؤدى إلى التآلف وزوال الغل ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ متحابين مجتمعين على الأخوة فى الله. ﴿ولتكن منكم﴾ من للتبعيض، لأن الأمر بـالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية، ولأنه لا يصلح له كل أحد، إذ للمـتصدى له شـروط لا يشترك فيـها جميع الأمـة، كالعلم بالأحكام ومراتب الاحتـساب وكيفية إقامـتها، والتمكن من القيام بهـا. خاطب الجمع وطلب فـعل بعضـهم ليـدل على أنه واجب على الكل، حـتى لو تركـوه رأسا أثمـوا جميعا، ولكنه يسقط بفعل بعضهم(١).

وقال البـغوى: سبب نزول الآية: أنه كـان بين الأوس والخزرج عداوة فى الجـاهلية حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة فأصلح بينهم، فافـتخر بعد ذلك منهم رجلان، وجرى الكلام بينهـما، فغـضبا وأنشـد الأشعار وتفـاخرا بها، فـجاء الأوس والخزرج ومـعهم السلاح، فأتاهم النبى ﷺ، وأنزل الله هذه الآية(٢).

حكـايـة

ذكر ابن الجوزى فى كتابه التبصـرة عن مليح بن وكيع قال: سمعتهم -يعنى الناس- يقولون: خرجنا من مكة فى طلب الفضيل بن عياض إلى رأس الجبل، فخرج علينا من شعب لم نره، فقال لنا: أخرجتمونى من منزلى، ومنعتمونى الصلاة والطواف، ففررت منكم إلى هنا، فجئتم، أما إنكم لو أطعتم الله تعـالى واتقيتم، ثم شئتم أن تزول معكم الجبال زالت، ثم دق الجبل بيده، فرأينا الجبل قد اهتز وتحرك.

---

(١) أنوار التنزيل: ص (٨٤).

(٢) تفسير البغوى: (١/ ٣٣٣، ٣٣٤).

المجلس الخامس والعشرون

فى فريضته الزكاة وإثم مانعها

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال: «ادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»(١).

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقه - ثم يقول أنا مالك، أنا كنزك»(٢)، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠].

قوله: «شجاعا» هو الحية الذكر. والأقرع: الذى سقط شعره لكثرة سمه، وقيل: الشجاع الذى يواثب الفارس والراجل، ويقوم على ذنبه، وربما بلغ رأس الفارس، ويكون فى الصحارى. ومعنى «مثل»: أى نصب أو صير، بمعنى أن ماله يصير على هيئة الشجاع المذكور.

وقوله: «له زبيبتان» بالتصغير تثنية زبيبة، وهى نكتة سوداء فى عين الحية. وقيل: هما نقطتان يكتنفان فاها. وقيل: هما زائدتان فى شدقيها. والشدق: جانب الفم.

وقوله: «أنا كنزك» المراد بالكنز هنا: كل مال وجبت فيه الزكاة فلم تؤد، فأما مال أخرجت زكاته فليس بكنز.

قوله: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون﴾ قال البغوى: ولا يحسبن الباخلون البخل خيرا

---

(١) متفق عليه: البخارى فى الزكاة (١٤٥٨، ١٤٩٦) ومسلم فى الإيمان (١٩/ ٢٩، ٣١).

(٢) البخارى فى الزكاة (١٤٠٣).

لهم، بل هو - يعنى البخل - شر لهم. ﴿سيطوقون﴾ أى سوف يطوقون ﴿ما بخلوا به يوم القيامة﴾. يعنى: يجعل ما منعه من الزكاة حية تطوق عنقه يوم القيامة تنهشه من قرنه إلى قدمه(١).

والحاصل: أن الله تعالى فرض على المكلفين زكاة أموالهم فى كل سنة، فينبغى أن يؤدوها بطيب نفوسهم من غير كراهية ولا تضجر، ولا احتيال على درء الزكاة عن أموالهم، وقد اعتاد غالب الناس على إخراج زكاتهم فى شهر رجب كما روى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه خطب الناس على المنبر فى شهر رجب فقال: إن هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليؤد دينه، وليزك ما بقى. أخرجه مالك فى الموطأ.

وبكل حال فإنما تجب الزكاة إذا تم الحول على النصاب، فكل أحد له حول يخصه بحسب وقت ملكه للنصاب، فإذا تم حوله وجب عليه إخراج زكاة ماله فى أى شهر كان، فإن عجل زكاته قبل الحول جاز عند جمهور العلماء، سواء كان تأجيله لاغتنام زمان فاضل، أو لاغتنام الصدقة على من لا يجد مثله فى الحاجة أو نحو ذلك، ذكره العلامة ابن رجب فى اللطائف.

حكاية

ذكر الشيخ اليافعى فى روض الرياحين عن إبراهيم بن بشار رحمه الله قال: كنت مع إبراهيم بن أدهم رحمه الله فى سفر، وليس معنا شىء نفطر عليه، ولا لنا حيلة، فرآنى ابن أدهم مغتما فقال: يابن بشار، ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعم والأجر فى الدنيا والآخرة، لا يسألهم الله تعالى يوم القيامة عن حج ولا عن صدقة ولا عن صلة رحم ولا عن مواساة، وإنما يسأل ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين -يعنى الأغنياء- ثم قال: إن الأغنياء المانعين لحقوق الله تعالى أعزة فى الدنيا أذلة فى الآخرة، لا تغتم ولا تحزن، فرزق الله مضمون سوف يأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء لنا الراحة فى الدنيا والآخرة، ولا نبالى على أى حال أصبحنا أو أمسينا إذا أطعنا الله عز

(١) تفسير البغوى: (١/ ٣٧٨).

وجل. ثم قام إلى صلاته، فقمت إلى صلاتى، فما لبثنا إلا ساعة، وإذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثيـر، فوضعه بين أيدينا وقال: كلوا رحمكم الله. فسلم إبراهيم من صلاته وقال: كل يا مغموم يا حزين، فمر بنا سائل فقال: أطعمونى شيئا لوجه الله فأعطاه إبراهيم ثلاثة أرغفة وتمرا، وأعطانى ثلاثة وتمرا، وأكل رغيفين وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين.

* * *

المجلس السادس والعشرون

فى وفاة النبى ﷺ

أخرج البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى قال: خطب رسول الله ﷺ الناس وقال: «**إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**»، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال ﷺ: «**إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكر**»[1].

اعلم أن الموت مكتوب على كل حى من الأنبياء والرسل وغيرهم. قال الله تعالى لنبيه: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠**﴾ [الزمر: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ۝٣٤**﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۝١٨٥**﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كيف يطمع أحد فى البقاء وما من نبى إلا مات، أم كيف يأمن هجوم المنايا، ولم يسلم منها الأصفياء والأحباب، هيهات هيهات.. لما علم رسول الله ﷺ بقرب أجله، وانتقاله إلى عالم الآخرة بعد تقرير أحكام الشرائع، وانتشار الحق بين المؤمنين، صعد ﷺ المنبر، ليعلم الناس بطريق الإشارة أنه مفارقهم، وأن الله تعالى هو وكيل عليهم وحافظ لهم، ومدبر لأمورهم، فقال فى خطبته: «**إن الله خير عبدا**». أى أوحى إليه أن يختار حالة من حالتين، وعنى بالعبد نفسه؛ لأن أشرف أوصافه العبودية لله تعالى، ثم بين ذلك التخيير بقوله: «**بين الدنيا**». أى بقائه فى الدنيا واستعماله ما فيها من اللذائذ والشهوات. «**وبين ما عنده**». أى عند الله، يعنى الآخرة، فإنها عند الله تعالى، وأهلها لا يغيبون عن شهودهم الله تعالى على حسب أحوالهم فيها. فاختار ذلك العبد ما عند الله، وهو الدار الآخرة.

وما فهم هذا المعنى الذى أشار إليه ﷺ من الصحابة إلا أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) متفق عليه: البخارى فى فضائل الصحابة (٣٦٥٤) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٢/ ٢).

عنه، واسمه عبد الله بن عثمان، وكنية أبيه عثمان أبو قحافة؛ أسلم أبو بكر هو وأبوه وأمه وصحبوا النبي ﷺ، وولد أبو بكو بعد الفيل بثلاث سنين، وتوفى سنة ثلاث عشرة من الهجرة وعمره ثلاث وستون سنة، كرسول الله ﷺ وعمر رضى الله عنه، فإنهما بلغا من العمر ثلاثا وستين سنة، ومناقبه كثيرة، وفضائله شهيرة.

قوله: «فعجبنا لبكائه». إنما كان حزنه وبكاؤه على مفارقة رسول الله ﷺ، وبقية الصحابة لا يعلمون ذلك، فلهذا تعجبوا منه. وقوله: «أن يخبر». أى لإخبار رسول الله ﷺ، عن عبد خيره الله. وهو علة لبكائه. قوله: «إن من أمن الناس». هذا بيان من النبي ﷺ لأفضلية أبى بكر وكونه أعلم الصحابة وأذكاهم، وبيان لوجه بكائه الذى خفى عليهم. وقوله: «أمن الناس». أى أكثرهم منة. وسرعة فهمه وذكائه من جملة منته عى النبي ﷺ فى الصحبة.

وفى شرح مسلم للإمام النووى: قال العلماء: معناه أكثرهم جودا وسماحة بنفسه وماله، وليس هوالمن الذى هو الاعتداد بالصنيعة، لأنه أذى مبطل للثواب، ولأن المنة لله ورسوله فى قبول ذلك وفى غيره[(١)].

قوله: «ولو كنت متخذا خليلا». قال القاضى عياض: أهل الخلة: الافتقار والانقطاع. فخليل الله: المنقطع إليه. وقيل: لقصر حاجته على الله تعالى. وقيل: الخلة: الاختصاص. وقيل: الاصطفاء. وقال ابن فورك: الخلة صفاء المودة، يتخلل الأسرار. قوله: «ولكن أخوة الإسلام ومودته». استدراك من نفى خلته ﷺ لأبى بكر، وإثبات للأخوة الإسلامية، والمودة الإيمانية. يعنى: أن القدر المشترك بيننا وبينه هو صفة الإسلام والمودة الحاصلة بين الخاص والعام[(٢)].

قوله: «لا يبقين فى المسجد» إلى آخره. فيه إشارة إلى أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا قد اتخذوا أبوابًا من بيوتهم التى حول المسجد يدخلون منها إلى المسجد، فأظهر النبي ﷺ فضيلة أبى بكر عليهم بالقول والفعل، فأهم بسد تلك الأبواب كلها إلا باب أبى بكر، وفى ذلك كله إشارة إلى اقتراب أجله ﷺ، وأن الخلافة لأبى بكر، فإن الخليفة يحتاج إلى سكنى المسجد لأجل الإمامة، ويحتاج إلى الاستطراق فيه بخلاف غيره.

---

(١) مسلم بشرح النووى: (١٥/ ١٥٠).
(٢) مسلم بشرح النووى: (١٥/ ١٥٠، ١٥١).

والحاصل: أن النبي ﷺ مازال يعرض باقتراب أجله فى آخر عمره، فإن لما خطب فى حجة الوداع قال للناس: **«خذوا عنى مناسككم فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا»**[١]. وطفق يودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع. فلما رجع من حجته إلى المدينة جمع الناس فى مكان يسمى (خم) بضم الخاء المعجمة، فى طريقه بين مكة والمدينة، وقال: **«أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب»** ثم حث على التمسك بكتاب الله، ووصى بأهل بيته. ثم إنه لما بدأ به مرض الموت خير بين لقاء ربه وبين زهرة الدنيا والبقاء فيها ماشاء، فاختار لقاء الله، وخطب الناس وأشار إليهم بذلك من غير تصريح.

وكان ابتداء مرضه فى أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يومًا فى المشهور، وكانت خطبته المذكورة فى ابتداء مرضه الذى مات فيه وهو معصوب الرأس، فقام على المنبر ثم هبط عنه، فما رؤى عليه بعد ذلك، فابتدأه وجعه الذى قبضه الله تعالى فيه.

وإن أول مرضه كان صداع الرأس ومعه حمى، ثم إنها اشتدت به فكان يجلس فى مخضب ويصب الماء عليه من سبع لم تحلل أوكيتهن، أى لم ينتقص من مائهن شيء يتبرد بذلك، وكانت عليه قطيفة، فكانت حرارة الحمى تصيب من وضع يده عليه من فوقها. فقيل له فى ذلك فقال: **«إنا كذلك، يشدد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر»**[٢]. وقال: **«إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم»**[٣]. ومن شدة وجعه كان يغمى عليه فى مرضه ثم يفيق، فأغمى عليه مرة فظنوا أنها ذات الجنب، فلددوه، أى صبوا الدواء فى أحد شقى فمه، فلما أفاق أنكر ذلك وأمر أن يلد من لده، وقال: **«إن الله لم يكن ليسلطها على - يعنى ذات الجنب - ولكنه من الأكلة التى أكلتها يوم خيبر»**[٤]؛ يعنى أن نغص عليه سم الشاة التى أهدتها له اليهودية فأكل منها يومئذ وكان ابن مسعود وغيره يقولون: إنه مات شهيدًا من السم.

وكانت عنده فى مرضه سبعة دنانير، وكان يأمرهم بالصدقة بها، ثم يغمى عليه، فيشتغلون بوجعه، فدعا بها ووضعها فى يده وقال: **«ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده**

(١) **صحيح**: مسلم فى الحج (١٢٩٧/ ٣١٠) وأبو داود فى الحج (١٩٧٠) وابن ماجة فى الحج (٣٠٢٣).

(٢) **إسناده صحيح**: ابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٤) وفى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأحمد (٣/ ٩٤).

(٣) **متفق عليه**: البخارى فى المرضى (٥٦٤٨، ٥٦٦٠) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٧١/ ٤٥).

(٤) **إسناده صحيح**: ابن سعد فى الطبقات (٢/ ١٨٢) وله شاهد عند البخارى فى المغازى (٤٤٢٨) بمعناه.

هذه»[١]، ثم تصدق بها كلها. فكيف يكون حال من لقى الله وعنده دماء المسلمين وأموالهم المحرمة، وما ظنه بربه.

فلما احتضر ﷺ اشتد به الأمر، وكان عنده قدح ماء فيدخل يده فيه ويمسح وجهه بالماء، ويقول: «**اللهم أعنى على سكرات الموت، لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**»[٢]. ولما ثقل النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب، فقالت فاطمة رضى الله عنه: «**واكرب أبتاه**». فقال لها: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**»[٣]، ثم لما نزل به الموت غشى عليه ساعة ثم أفاق، فشخص ببصره إلى سقف البيت ثم قال: «**اللهم الرفيق الأعلى**»[٤].

وكانت وفاته ﷺ يوم الإثنين فى شهر ربيع الأول بغير خلاف. والمشهور بين الناس أنه كان يوم ثانى عشر، وقيل فى الثالث عشر. وقيل فى الرابع تعشر. وقيل فى الخامس عشر.

ولما توفى رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون اضطرابًا شديدًا، فمنهم من دهش فخولط فى عقله، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، فكان من هؤلاء عمر رضى الله عنه، وبلغ الخبر أبا بكر رضى الله عنه، فأقبل مسرعًا حتى دخل بيت عائشة رضى الله عنها ورسول الله ﷺ مسجى، فكشف عن وجهه الثوب، وأكب عليه، وقبل وجهه مرارًا وهو يبكى ويقول: وانبياه، واخليلاه، واصفياه. ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦]، مات والله رسول الله. والله لا يجمع الله عليك موتتين أبدًا، أما الموتة التى كتبت عليك فقد متّها، ثم دخل المسجد وعمر، يكلم الناس وهم مجتمعون عليه، فتكلم أبو بكر، وتشهد وحمد الله، فأقبل الناس عليه وتركوا عمر، فقال: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت قال الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**

---

(١) **إسناده صحيح**: أحمد (٦، ٨٦، ١٠٤، ١٨٦) والبغوى فى شرح السنة (٦/ ١٥٦) وابن سعد فى الطبقات (٢/ ١٨٣).

(٢) **إسناده ضعيف**: الترمذى فى الجنائز (٩٧٨) وابن ماجة فى الجنائز (١٦٢٣) قلت فى سنده موسى بن سرجس مستور كما فى التقريب.

(٣) البخارى فى المغازى (٤٤٦٢).

(٤) البخارى فى المغازى (٤٤٦٣).

﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فلما سمع الناس كلام أبى بكر وتليت عليهم الآية استقيظوا كلهم بموته، فكأنهم لم يسمعوا هذه الآية من قبل أن يتلوها أبو بكر. فتلقاها الناس منه، فما يسمع أحد إلا يتلوها(١).

قال البيضاوى: روى لنا أنا لما رمى عبد الله بن قميئة الحارثى رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته وشج وجهه يعنى يوم أحد، فذب عنه مصعب بن عمير وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قميئة وهو يرى أنه قتل النبى ﷺ فقال: قد قتلت محمدًا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فانكفأ الناس، وجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إلى عباد الله». فانحاز إليه ثلاثون رجلاً من أصحابه وحموه حتى كشفوا عنه المشركين، وتفرق الباقون. وقال بعضهم: ليت ابن أبى يأخذ لنا أمانًا من أبى سفيان. وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيًا ما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم. فقال: أنس بن النضر عم أنس بن مالك: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعده، فقاتلوا على ما قاتل عليه، ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقولون وأبرأ منه. ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل رضى الله عنه، فنزلت هذه الآية(٢).

ثم إنه ﷺ لما انقضى أجله المعلوم، تحقق له القضاء المحتوم، ومات ﷺ ولم يقتل على مقتضى ما فى علم الله تعالى. والتردد الواقع فى الآية ليس للشك أو للترديد، وإنما هو لبيان وجه الإمكان فى انقضاء أجل كل إنسان.

ودفن ﷺ بالمدينة المنورة فى قبره المعلوم الآن، وهو البقعة التى مات فيها حتى يقال: إنه رفع فراشه وحفر له مكانه فى بيت عائشة رضى الله عنها. وهو ﷺ حى فى قبره وإن اتصف بالموت كما ورد ذلك فى الأحاديث الشريفة، وصح فى الحديث «الأنبياء أحياء فى قبورهم»(٣). والأحاديث فى ذلك كثيرة جمعها البيهقى فى جزء، واستدل بذلك على حياة الأنبياء حياة مخصوصة أعلا وأتم من حياة الشهداء المذكورة فى القرآن.

---

(١) البخارى فى المغازى (٤٤٥٤).

(٢) أنوار التنزيل: ص (٩١).

(٣) إسناده حسن: أبو يعلى والبزار كما فى مجمع الزوائد: (٨/ ٢١١) وقال الهيثمى: رجال أبى يعلى ثقات ورواه الديلمى (٤٠٣) والسيوطى فى الجامع الصغير (٣٠٨٩) وقال: حسن وهو كما قال.

المجلس السابع والعشرون

فى فضل زيارة النبى ﷺ

أخرج البيهقى موقوفًا بسند صحيح عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما أنه كان إذا قدم من سفر صلى ركعتين فى مسجد النبى ﷺ ثم أتى القبر فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبه(١).

وأخرج البيهقى بسند قال السيوطى: إنه حسن، ونوزع فيه، ولا ينزل عن رتبة الضعف، والحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارنى بالمدينة محتسبًا كنت له شهيدًا وشفيعا يوم القيامة»(٢).

وأخرج البيهقى بسند ضعيف عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبرى وجبت له شفاعتى»(٣).

قوله: «يا أبه» يريد بذلك أباه عمر بن الخطاب رضى الله عنه. ومعلوم أن رسول الله ﷺ حى فى قبره يرد السلام على من يسلم عليه، وكذلك الخلفاء الراشدون كأبى بكر وعمر. وقوله: «محتسبًا» أى: ناويا بزيارته وجه الله، وحصول البركة والخير.

وقوله: «كنت له شهيدًا يوم القيامة» أى على طاعاته أنها صدرت منه على الوجه التام، ووفق للإخلاص فيها كما وفق للإخلاص فى زيارتى.

وقوله: «وشفيعًا» أى من الذنوب التى تصدر منه، أو فى رفع درجاته عند الله تعالى.

وقوله: «وجبت له شفاعتى» أى لزمت وحقت، جزاء له على الزيارة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

والحاصل: أن زيارة النبى ﷺ من أعظم القربات، وأفضل الطاعات، وما ورد من

---

(١) إسناده صحيح: البيهقى فى السنن الكبرى (٥/ ٢٤٥).

(٢) إسناده ضعيف: البيهقى فى السنن الكبرى (٥/ ٢٤٥) وقال: إسناده مجهول وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير (٨٧١٥).

(٣) المصدر السابق.

الشهادة للزائر والشفاعة يوم القيامة نظير ما كان يحصل منه ﷺ فى حياته، من الاستغفار للمذنبين الذين يأتونه . قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

نزلت هذه الآية فى شأن المنافقين، ثم بقى حكمها إلى يوم القيامة: أن كل من ارتكب الذنوب والخطايا، وجاء تائبًا مستغفرًا إلى زيارة النبى ﷺ بصدق وإخلاص فإن الله تعالى يعطف بروحانية النبى ﷺ، فيستغفر له ﷺ، ويطلب من الله تعالى غفران ذنوبه، ويشفع فيه، فيجيبه الله تعالى إلى ذلك.

وقال الشهاب أحمد بن حجر المكى فى كتابه «الجوهر المنظم فى زيارة القبر المعظم»: إن رد النبى ﷺ سلام الزائر عليه بنفسه الكريمة أمر واقع لاشك فيه، وإنما الخلاف فى رده على المسلم من غير الزائرين. فهذه فضيلة أخرى عظيمة ينالها الزائرون لقبره ﷺ، فيجمع الله لهم بين سماع رسول الله ﷺ لأصواتهم من غير واسطة، وبين رده عليهم سلامهم بنفسه، فكيف يحصل لمن سمع بهذين، بل بأحدهما أن يستأخر عن زيارته ﷺ، أو يتوانى عن المبادرة إلى حضرته، وعلم من ذلك أنه ﷺ حى على الدوام، إذ من حال العادى أن يخلو الوجود عن كله عن واحد يسلم عليه فى ليل أو نهار، فنحن نؤمن ونصدق بأن رسول الله ﷺ حى يرزق، وأن جسده ﷺ لا تأكله الأرض ، وكذا سائر الأنبياء، والإجماع على هذا.

حكاية

ذكر القرطبى فى تفسيره عن على رضى الله عنه أنه قال: قدم علينا أعرابى بعدما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على القبر، وحثا على رأسه التراب ثم قال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك، ووعيت عن الله عز وجل فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وقد ظلمت نفسى وجئتك لتستغفر لى. فنودى من القبر: قد غفر لك[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ١٧٢، ١٧٣).

المجلس الثامن والعشرون

فى المـــــوت

أخرج البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» فقالت عائشة رضى الله عنها أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شىء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شىء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»(١).

وأخرج الشيخان أيضًا عن أبى قتادة الأنصارى أنه كان يحدث أن رسول الله ﷺ مر عليه بجنازة، فقال: «مستريح ومستراح منه». قالوا: يا رسول الله ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»(٢).

قوله: «من أحب لقاء الله». أى المصير إلى الدار الآخرة، بمعنى أن المؤمن عند الغرغرة يبشر برضوان الله تعالى، فيكون موته أحب إليه من حياته كما كان النبى ﷺ يقول عند موته: «اللهم الرفيق الأعلى»(٣). «أحب الله لقاءه». أى أفاض عليه فضله، وشرح صدره إلى حصول القرب منه سبحانه. «ومن كره لقاء الله». حين يرى ما له عند الله من العذاب، فحينئذ «كره الله لقاءه». أى أبعده من رحمته، وأدناه من نقمته.

وهذا الحديث يفسر آخره أوله، ويبين المراد بباقى الأحاديث المطلقة، ومعناه: أن الكراهة المعتبرة هى التى تكون عند النزع فى حالة لا تقبل فيها توبة ولا غيرها، فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه، وما أعد له، ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله، لينتقلوا إلى ما أعد لهم، ويحب الله لقاءهم، فيجزل لهم

---

(١) متفق عليه: البخارى الرقاق (٦٥٠٧) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٨٣، ٢٦٨٤).

(٢) متفق عليه: البخارى فى الرقاق (٦٥١٢) ومسلم فى الجنائز (٩٥٠/ ٦١).

(٣) سبق تخريجه.

العطاء والكرامة، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينقلبون إليه، ويكره الله تعالى لقاءهم فيبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم. وهذا معنى كراهته سبحانه وتعالى لقاءهم.

قوله: «مر عليه بجنازة». إلى آخره، معنى الحديث أن الميت قسمان: «مستريح، ومستراح منه». «ونصب الدنيا»: تعبها. وأما استراحة العباد من الفاجر فمعناه اندفاع أذاه عنهم، وأذاه يكون من وجوه، منها ظلمة لهم، ومنها ارتكابه للمنكرات، فإن أنكروها قاسوا مشقة من ذلك، وربما نالهم ضرره، وإن سكتوا عنه أثموا، واستراحة الدواب منه كذلك، لأنه يؤذيها بضربها وتحميلها ما لا تطيقه، ويجيعها في بعض الأوقات، وغير ذلك. واستراحة البلاد والشجر؛ لأنها تمنع القطر بمعصيته. قال الداودى: وقال الباجى: يغضبها ويمنعها حقها من الشراب وغيره. ذكره الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم[1].

والحاصل: أن الموت تحفة للعبدة المؤمن، يلقى به ربه، فينجز له ما وعده من نعيم الآخرة، ويستريح من تعب الدنيا ومشقة تكاليفها، وأما العاصى فإن الموت فى حقه نقمة إذا لم يوافقه الله تعالى للتوبة، ولهذا يكره الموت.

قال الشيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه «بشرى الكئيب بلقاء الحبيب» قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقة وحيلولة بينهما، تبدل حال وانتقال من دار إلى دار.

وقال ابن القيم: للنفس أربعة دور، كل دار أعظم من التى قبلها، الأولى بطن أمه، وذلك محل الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث. الثانية هذه الدار التى نشأت فيها، واكتسبت فيها الخير. الثالثة دار البرزخ، وهى أوسع من هذه الدار وأعظم، ونسبة هذه الدار إليها كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار. الرابعة دار القرار، الجنة أو النار، وللنفس فى كل دار من هذه الدور حكم ونشأة غير نشأة الأخرى.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنَّ

(١) مسلم بشرح النووى.

الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ - ٨].

قوله: «هادوا». الخطاب لليهود. أى تهودوا. وقد كذبوا بالحق لما جاءهم، وجحدوا نبوة نبينا ﷺ، **وزعموا أنهم على الحق، وأنهم أولياء الله. فقال الله تعالى فى الرد** عليهم: **﴿إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس﴾** أى دون محمد وأصحابه وصالحى أمته من بعده **﴿فتمنوا الموت﴾** من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى دار الكرامة **﴿إن كنتم صادقين﴾** فى زعمكم ذلك. ثم أخبر الله تعالى بقوله: **﴿ولا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم﴾** أى بسبب ما قدموا وفعلوا من الكفر والمعاصى، فإن الكافر والعاصى لا يمكنه أن يتمنى الموت أبدًا، ليقينه بقبيح فعله، وأن الله تعالى ساخط عليه، والعاقل لا يرضى أن يقابل ملكًا من ملوك الأرض إن كان ساخطًا عليه، فكيف بملك الملوك سبحانه.

وقد جعل الله تعالى تمنى الموت لليهود نورًا كاشفًا لهم عن قبيح أفعالهم حين أشكل عليهم أمرها، والتبس الباطل عليهم بالحق، ولم يهتدوا إلى ما هو الخير والصواب. ولهذا قال بعض المحققين من أهل الله: إذا اشتبه عليكم حكم من الأحكام ولم تعرف الدليل الشرعى ما هو الصواب فيه، فأجر على قلبك مقتضى ذلك من الفعل أو الترك، وأورد عليك خاطر الموت، فإن وجدت ذلك الفعل أو الترك ثابتًا مع خاطر الموت فهو حق، وإلا فهو باطل **﴿والله عليم بالظالمين﴾** لا يخفى عليهم أحد منهم، فيجازيهم على أعمالهم **﴿قل إن الموت الذى تفرون منه﴾** تخافون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم، فتؤخذوا بأعمالكم **﴿فإنه ملاقيكم﴾** لاحق بكم.

وحاصله: أن تمنى الموت نور يكشف الله تعالى به أحوال أهله من خير أو شر، وقد جعله الله تعالى معجزة لنبينا ﷺ فى حق اليهود، حتى ورد أنه ﷺ قال عن اليهود ما معناه: إنهم لو تمنوا الموت لماتوا فى الحال كما قال الله تعالى لهم: **﴿فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾**.

قال البيضاوى فى بيان ذلك: لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها، وأحب التخلص من هذه الدار ذات الشوائب كما قال على رضى الله عنه: لا أبالى سقطت على الموت أو سقط على الموت[1]. **وقال عمار بن ياسر بصفين: الآن ألقى الأحبة**

---

(١) أنوار التنزيل: ص (٧٣٦).

محمدًا وصحبه. وقال حذيفة بن اليمان: جاء حبيب على فاقة، لا أفلح من ندم، أي على التمني، سيما إذا علم أنها سالمة له لا يشاركه فيها غيره.

وقال تعالى: ﴿ولا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم﴾ من موجبات النار، كالكفر بمحمد ﷺ والقرآن، وتحريف التوراة.

وهذه الجملة إخبار بالغيب، وكان كما أخبر؛ لأنهم لو تمنوا الموت لنقل واشتهر، فإن التمني ليس من فعل القلب ليخفى، بل هو أن يقول: ليت كذا. وإن كان بالقلب لقالوا: تمنينا. وعن النبي ﷺ: «لو تمنوا الموت لغص كل إنسان بريقه فمات مكانه، ولم يبق على وجه الأرض يهودي»(١).

حكاية

ذكر اليافعي في روض الرياحين قال: روى أن سليمان بن عبد الملك قال لأبي حازم: مالنا نكرة الموت؟ قال: لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال: صدقت يا أبا حازم، ليت شعري مالنا عند الله غدا؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله تعالى. قال: وأين أجده في كتاب الله تعالى؟ قال: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. قال سليمان: ليت شعري، كيف العرض على الله تعالى؟ قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله فرحًا مسرورًا، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا، فبكى سليمان.

(١) الجامع لأحكام القرآن: (١٨/ ٦٣).

دعاء آخر السنة

وقد اشتهر من الأدعية هذا الدعاء يدعى به فى آخر السنة، وورد أن له ثوابًا جزيلاً، وهو هذا «**اللهم ما عملت فى هذه السنة مما نهيتنى عنه، ولم ترضه، ولم تنسه، وحلمت عنى بعد قدرتك على عقوبتى، ودعوتنى إلى الطاعة والتوبة بعد جرأتى على معصيتك، فإنى أستغفرك منه، فاغفر لى. وما عملت فيها مما ترضاه، ووعدتنى على الثواب، أسألك أن تتقبله منى، ولا تقطع رجائى منك يا كريم**»(١).

دعاء أول السنة

وأما دعاء أول السنة الجديدة فهو هذا الدعاء المشهور، وله عند الله كمال الأجور «**اللهم أنت الأبدى القديم، وهذه سنة جديدة، أسألك العصمة فيها من الشيطان وأوليائه، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء، والاشتغال بما يقربنى إليك زلفى ياذا الجلال والإكرام**»(٢).

* * *

وهذا المقدار آخر مايسره الله لنا من عمل هذه المجالس بمعونة الله وحسن توفيقه، ونسأل من يطالع هذه المجالس ألا ينسانا من دعائه فى أوقات خلوته وجلوته. وقد عملنا فى تصنيف ذلك مع ما لنا من الاشتغال بغيره، فكان ابتداء تحريرنا لهذه المجالس نهار الخميس الثانى عشر من شعبان سنة اثنتين ومائة وألف، وفرغنا من ذلك نهار السبت الثانى عشر من رمضان المبارك من السنة المذكورة، فكانت مدة التصنيف شهرًا كاملاً، والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

وذلك على يد الفقير محمد بن إبراهيم الدكدكجى خادم الأستاذ المصنف لهذا الكتاب، نفعنا الله تعالى به وبأنفاسه، وسقانا من حضرة القرب بكاسه آمين.

عبد الغنى النابلسى

تم الكتاب والحمد لله

(١، ٢) لم أقف عليه ولعله ليس من أحاديث النبى ﷺ والله أعلم.

{ ظهر حديثاً للمؤلف }

١- المسلمون في زمان الفتن

٢- رحلتي إلى القدس

٢- خمرة الحان ورنة الألحان

{ يظهر قريباً بإذن الله تعالي }

١- الإمام السجَّاد على زين العابدين (عبدالقادر أحمد عطا)

٢- التوحيد بين التعظيم والتكبير (الديلمى)

٢- مغيث الخلق (الجوينى)

٤- العقيدة الأصفهانية (ابن تيمية)

فهرس

الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م
مكتبـة القـاهـرة - الأزهـر
ت : ٥٩٠٥٩٠٩ - ص. ب : ٩٤٦- العتبـة

رقم الايداع ٩٦/١٣٦١٧
I.S.B.N
977 - 5437 - 1 5 - 6